من فقه الصيام

الأستاذ الدكتور
محمود محمد محمد عماره
أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان بالمنصورة

طبعة جديدة مزيدة مصححة ومنقحة

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

تليفون: ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أحرار بالتقوى

*** تمهيد:**

تحت وطأة الغريزة المتشبثة بالحياة يمشى الإنسان فى مناكب الأرض .. طلبًا للرزق والأمان. ويعود الجسم المكدود إلى فراشه فى سجوة الليل .. ثم يستغرق فى النوم وتبقى الروح يقظى لا تنام.

والسؤال الذى يفرض نفسه هو: هل تستطيع الروح الصاحية أن تفعل شيئًا .. فى لحظة ينام فيها الجسم؟

والجواب: إذا استيقظ الجسم .. وفرك النائم عينيه. ورأى النور ثم تحرك نشطًا. فى هذه اللحظة فقط تستطيع الروح - بسلاح الجسم - أن تنطلق .. وأن تغير من الأوضاع ما تشاء..

وتلك قصة العقيدة فى دنيا الناس: إنها تظل صالحة للعمل .. مضمومة على عناصر الحركة والتغيير والرقى.. لكن ذلك كله يظل حبرًا على ورق .. إلى أن يتهيأ للعقيدة رجال أيقاظ يتحملون مسؤولياتها .. ويغرسون أعوادها .. لتؤتى بعد ذلك أكلها كل حين بإذن ربها. وهكذا الإسلام ، فهو الدين: الصالح .. المصلح. غير أنه لن يؤدى دوره فى معترك الحياة إلا برجال يتمثلون مبادئه.. ويضحون فى سبيلها بكل مرتخص وغال.

وإذ يبلغ عدد المسلمين اليوم فوق الألف مليون . فإن مجرد انتمائهم للإسلام لن ينهى مسؤولياتهم .. وسوف يظل الإسلام - ما تخاذلوا - سيظل صالحًا للعمران .. ولكن مع إيقاف التنفيذ!! حتى يتحول هذا الرقم المذهل إلى قوة بانية فاعلة.

*** نقطة البداية:**

ونتساءل مرة أخرى: ومن أين تبدأ هذه الحركة المباركة .. والتى يتم بها التغيير؟ وتكون الصحوة بعدها مجدية؟

والجواب: تبدأ . . من الصيام . . وكيف؟ من سلطان العادة إلى طلاقة العبادة. . . فقد يكون الجسم صاحيًا . . والعقيدة متمكنة. ولكن أغلالاً من العادات الرديئة تشل حركتها. . فكان لابد من وقفة مع هذه العادات المعطلة . . لينطلق المسلم على ساحة الخير. . وفى كل اتجاه . . ولا يتم ذلك إلا بإدراك خطورة العادة . . ثم التهيؤ لمنازلتها.

وفى هذا المعنى يقرر ابن القيم ما للعادة من تأثير عظيم: فيما يحبه الله تعالى. . وفيما يكرهه.

فلهذا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين فى أقوالهم وأعمالهم . وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة . ومن هنا جاء النهى عن التشبه بالأعاجم حتى لا نفوّت به فضائل السابقين. وفرارا من نقائص الأجانب. والتى تنقص بها الطاعة.

ومن دلائل سلطان العادة: ما روى من أن «الحريرى» صاحب المقامات كان من عادته تسريح لحيته بيده دائمًا. فلما غاظ الخليفة ذلك كف عنها. فلما أعجب به الخليفة. طلب منه أن يسأله ما يريد. فقال الحريرى: أسألك السماح لى بتسريح لحيتى. كما كنت!!.

*** أضر العادات:**

ومن أعتى العادات: عادة الإسراف فى الأكل . . والتفنن فيه . . ومن دلائل خطورتها.

١ ـ أن المسرف لا يشعر بهموم الآخرين.

٢ ـ وأنه يأكل تلذذا واشتهاء.

٣ ـ ثم يجره التلذذ والاشتهاء إلى رذائل اجتماعية وبيلة ومنها: التفنن فيما يرضى الناس من اللباس . . والمركب. وهذا بدوره يجر إلى الغرور . . والكبر. . والظلم . . والبخل . .

يقول الإمام الغزالى: «غوائل المال وآفاته: دينية . ودنيوية: أما الدينية فثلاث:

الأولى: أنه يجر إلى المعاصى غالبًا؛ لأن من استشعر القدرة على المعصية انبعثت داعيته إليها والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصى، ومتى يئس الإنسان من المعصية لم تتحرك داعيته إليها.

والثانية: أنه يحرك إلى التنعم فى المباحات، حتى تصير له عادة وإلفًا، فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة.. فيقتحم الشبهات، ويترقى إلى آفات من المداهنة والنفاق.

والثالثة: وهى التى لا ينفك عنها أحد . وهى: أنه يلهيه ماله عن ذكر الله تعالى، وهذا هو الداء العضال فكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران.

ومن جملة الآفات الدنيوية: ما يقاسيه أرباب الأموال من الخوف، والحزن، والغم، والهم، والتعب فى دفع الحساب. وتجشم المصاعب فى حفظ المال وكسبه.

*** الصوم وأفق العبادة الأعلى:**

ويجىء الصيام فريضة محكمة ينقذنا الله تعالى بها من قيود العادات .. وعلى رأسها عادة الإسراف فى الطعام والشراب . وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٣].

فالتقوى حزام يقينا من الانفجار الداخلى .. وهذا ما يقرره العلماء:

فللتقوى أثرها البارز على الجوارح عن طريق عملية من الإحلال والتجديد:

إحلال عادات جديدة يكون المسلم بها أكثر انضباطًا .. أى: أكثر طلاقة وأعمق إحساسًا بالحرية.

فأنت بالصيام واضع بينك وبين المعاصى سدًا منيعًا .. يقيك شرها .. لتبقى ملكات الخير فيك سليمة .. وقوية .. صالحة للعمل فى كل الظروف وعلى كل المستويات.

إن الانغماس فى الترف داخل بك فى آفاق المعصية .. أى فى ذلك الجو الموبوء. فللمعصية وهن فى البدن ونقص فى الرزق. وخلل فى علاقتنا الاجتماعية والأسرية. فإذا دخلت أفق الصوم .. فقد تحقق لك نعمتان فى آن واحد: زحزحت

عن نار المعصية. ثم أدخلت بستان الصوم أو جنته. فصرت بالدخول إلى حماه بنجوة من هذا الضعف .. وذلك الخلل فحميت نفسك من الأمراض النفسية والجسمية معًا .. وصرت بالخروج من أسر العادة إلى أفق العبادة .. صرت جنديًا فى كتيبة الإيمان.. جنديًا يقظا .. متحركا .. يستطيع أن يفعل للإسلام شيئًا . وإلا .. فإن الانسياق وراء الطعام والشراب ينيم فيك الهمة .. بقدر ما يميت فى رأسك الفكرة .. ويجمد فى قلبك العاطفة.

أى أن الإسلام ـ مع صلاح منهجه ـ فإنه لن يغير الواقع إلى الأفضل .. ولن ينتصر على الباطل إلا بسلاح ماض .. بتار .. هو أنت أيها المسلم.

ولن تكون كذلك إلا إذا استعْلَت بك الإرادة فوق مناعم الحياة بالصوم.

*** ثمن الانتصار:**

وصحيح أنك سوف تفقد بالجوع والعطش خلايا جسمك. ولكنها خلايا عضلية مادية .. يمكن أن تستردها لحظة الإفطار .. بلقمة العيش .. وجرعة الماء. وفى نفس الوقت: تحتفظ بخلاياك العصبية والنفسية كما هى .. بل أقوى مما كانت. وخلايانا العصبية إذا فقدت .. فإنها لا تعود .. ولو أنها عادت .. فبثمن باهظ التكاليف. وهنا تبرز وظيفة الصوم .. الذى يقيك من المعصية .. ويفطمك عن الاسترسال فيها. وبذلك يحمى أثمن خلايانا من التمزق .. والضياع. لتبقى دائمًا ذلك الديدبان اليقظ .. والطاقة المحركة التى تحقق بها مشيئته سبحانه وتعالى.

*** الانتصار العظيم:**

يقول الطب الحديث: شيئان فقط هم اللذان يَفْرُمَان المعدة. وهما من صنع الإنسان نفسه: الكحول. والدخان. فعن طريقهما ترتفع الحموضة.. فتخرق جدار المعدة. فتكون القرحة. وتذهب الفرحة.. وتغيب الفكرة . بعد أن جاءت السكرة!.

ولقد كان الرومان ـ بعد ملء معداتهم بالطعام ـ يستفرغون... ثم يقعدون إلى وجبة جديدة .. ففقدوا عندئذ صلاحية الحياة .. وخربوا بيوتهم بأيديهم. وهنا تكمن خطورة المعدة التى صارت بابا إلى الجحيم .

وهنا يقرر الطب أيضًا: إن كل عضو فى الجسم له توكيل فى المخ: القلب له فى المخ مركز. واليد لها مركز. والسمع والبصر وهكذا. . إلا المعدة . . والجنس، فهما الوحيدان اللذان يعملان على حل شعرهما فليس لهما تمثيل فى المخ. ثم إن المعدة لا تنام. . فهى تعمل دائمًا . . حتى وأنت نائم . . ورغم أنفك؟! إنها إذن كما يقول أحد الأطباء: تفرض إرادتها عليك . . إنها دولة داخل الدولة . . وبينما يحس الإنسان أنه يأكل بإرادته ويكف بإرادته . . إلا أن المعدة . . ومن خلف الأسوار هى التى تأمره وتنهاه!!

ومن رحمة الله تعالى أن تدارك الإنسان بالصوم ليتحقق به النصر الأكبر على عدو مقيم فى كيانك يريد أن يستعبدك، فحمى المعدة نفسها من الانهيار. ثم حررك من عادات استعمرتك طويلاً:

إنك فى رمضان تتحرر من غريزة التملك. . . بالإنفاق. . . ومن غريزة الغضب. . بالعفو. ومن غريزة الجنس. . . بالزهد. وعلى مدى ثلاثين يوماً يصير ذلك عادة لك. . . بل عبادة تتقرب بها إلى ربك سبحانه.

*** أحرار بالتقوى:**

قال الوالد لولده وهو يعظه: يا بنى، اللقمة الدسمة لشيخ عظيم. . . أو طفل مدلل. . . ولست يا بنى واحداً منهما. . . فإذا أكلت، فلا تقضم قضم البغال. ولا تلقم لقم الجمال. كن إنساناً. . . ولا تكن بهيمة. فإذا كنت إنساناً: فلا تشبع. فالشبع يؤدى إلى البشم. وهذا يؤدى إلى السقم. وهذا يؤدى إلى الموت. وهى ميتة لعمرى أليمة: لأنك يا بنى تقتل نفسك!.

*** المعادلة السهلة:**

وما زال الطريق مفتوحاً. . . وفى رمضان بالذات ـ ليزداد طابور الأحرار من المتقين امتدادا .

والمهم هو: الخطوة الأولى: وإنما الصبر عند الصدمة الأولى. . وقد بدأها بعض العارفين بهذه البساطة التى جعلت من الصيام شيئاً ممتعاً. . مقدوراً عليه. . . لقد تصور هذا العابد الصوم هكذا: السحور هو: تقديم لفطور الصباح ليكون قبل الفجر!.

والفطور: ما هو إلا تأخير الغذاء قليلاً.. ليكون عند المغرب!... وهكذا كانت أيامه فى رمضان... تمر مر السحاب... لقد ضحك الرجل على معدته... قبل أن تضحك هى عليه!! حين أسكت نباحها وصياحها رغبة فى الطعام... فتحرر من إسارها. فهيا أيها المسلم... كن سيد مصيرك!.

* * * * *

رمضان وإرادة الإنسان

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: الآية ١٨٢] .

*** تمهيد:**

قال الشيخ لتلميذه وهو يحاوره: هل سمعت عن محب يسيئ إلى محبوبه؟ قال التلميذ الفتى: لا . . لم أسمع.

فقال الشيخ: إنه أنت؟!! كيف؟ إنك لتسيء إلى نفسك . . . وهى الأعز لديك . . . تسيئ إليها . . . لا مرة واحدة . . . وإنما مرتين! . بالمعصية حين ترتع فى الحرام. ثم بالترف حتى تعب من الحلال.

ولقد جاء الصوم لينقذك . . بل لينصف نفسك منك . . . بالصوم شهراً تتحرر به من ضغوط دنيا تستبد بك.

دنيا: أولها فوت . . . وآخرها موت . . حلالها: حساب . . . وحرامها عقاب.

دنيا: كل مخلوق فيها ينتخب ما يأكله . . إلا الإنسان الذى لم يترك شيئاً فى بطن البحر. أو على وجه الأرض. أو فى أعالى السماء . . . ويمكنه بعد كل ذلك أن ينام قريراً. تحت دعوى أنه الأرقى!!.

*** نداء البعيد:**

تستبد بالمسلم شهوته . . فتذهب به بعيداً فى الأرض حيران . . . وراء مطالب معدته . . . وهنا تسترخى الإرادة فلا تقوى على النهوض به ليعود مرة أخرى إلى الخط المستقيم.

وعندئذ تتداركه رحمة من ربه تعالى والذى يناديه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**[البقرة: الآية ١٨٢].

ولاحظ أن أداة النداء هنا هى: «يا» . . والتى لا ينادى بها إلا البعيد . . البعيد الذى أرهقته شهوته . . معدته . . ثم خانته إرادته . . لعله بحسن التعامل مع «جهازه الهضمى» أن تصلب إرادته . . ليعود كما كان . . عبداً لله . . وسيدا للكون.

* مغزى الصيام:

وإذن.. فقد جاءت فريضة الصوم لتعينك على السفر الطويل بالزاد القليل والإرادة الأقوى. وهذا بعض ما يفهم من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾.

إن حقائق الحياة من حولنا تقرر: ليس المهم أن يكون بيتك من طين أو حجر أو خشب.. أهم من ذلك كله: أن يكون نظيفاً. فليكن عشا... من حطب... مشدودا بأوتاد من خشب... المهم أن يكون جميلاً. هواء لطيف... ماء نظيف. ضوء الشمس.. نوافذ مفتوحة على فضاء متراحب.. وما الصوم إلا وقاية الجسم.. وتنظيف.. بيت الداء.. المعدة... ليصبح ذلك الجسم سكناً لائقاً بالروح وهى من العالم الأسنى!.

* مذاق رمضان فى حسّ المؤمن:

جاء رمضان كريماً.. ومن كرمه الباذخ: أنه يمنح المؤمن الهدى والبينات.. والفرقان... ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

إنه هدى: نور يكشف لك الحجب.. فتمضى على السداد.. وعلى جانبى الطريق بينات.. علامات تمسك بك حتى لا تزل ولا تضل. مهما طال بك المسير. وفى النهاية.. يمنحك حساً بعيداً تفرّق به بين الحق والباطل.. وإذا سقط الماديون فى حفر الطريق.. وإذا غشيتهم من الهوى والهوان ما غشى فى دوامة التنافس المجنون على حيازة الدنيا... فإن الصائم يرى نفسه من الصوم فى موقف.. لا يعتاد عليه... بل يأنس إليه... سعيدا بما منحه الصوم من طاقة الصبر. ومضاء العزيمة.. والرغبة الجياشة فى عمل الخير للغير.. على نحو يجعل من المسلم إنساناً جديداً ومفيداً.

* الذين فاتهم القطار:

والمسلم مأمور أن ينهض.. ويمضى مع الصائمين.. قبل أن يفوته القطار.

قبل أن يمضى الشهر... وقد فاته الهدى... والبينات والفرقان.. ولكن كيف ينهض.. ويتخلص من قيود الهوى.. والشيطان؟

* **السفر الطويل والزاد القليل:**

وطول السفر.. مفهوم من قوله تعالى فى الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فليس الصيام نزهة برية أو بحرية.. ولكنه السفر... الشاق... الطويل... (ولعلك)... أن تصل!.

أما قلة الزاد.. فمردودة إلى تحكم المعدة... ومضاعفات ذلك على صحة الإنسان حساً ونفساً.

وإذن.. فلابد للرحلة من أمرين:

أ - الصيام: صيانة للجهاز الهضمى.. من سطوة الطعام كما وكيفا.

ب - ما يترتب على ذلك من صلابة الإرادة القادرة بممارسة الصبر على أن تواجه الأحداث بقوة... وأن تتخذ قرارها بحكمة.

* **صلابة الإرادة:**

إن ميلاد الإنسان بداية لمرحلة من مراحل الكفاح. وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

فهو من الكبد «فى» أعماقه.. فى معمعته - وليس على هامشه ثم هو موصول المعاناة حتى يلقى ربه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] والإرادة الماضية هى زاده فى جهاده.

ولن تكون للحياة قيمة إلا إذا وفى الإنسان بما يطالبه الكد من تبعات وتكاليف.. وتلك هى متعته.. ورسالته فى نفس الوقت.. وللصيام أثره فى تكوين هذه الإرادة.

* **ألم تر إلى قول الحكماء:**

إن أجلى مظاهر الصحة - الجسمية والنفسية - أن تقعد على الطعام وأنت تشتهيه.. وأن تقوم عنه... وأنت تشتهيه. فمن وراء ما يحقق ذلك النسق من صحة الجسم... فلا شك أنه ما كان للنعمة أن تتم هنا إلا بإرادة صلبة... تقول

للطعام: لا.. بينما رائحة الشواء تملأ الأنوف!.

والصوم قمة أعلى لأنك لا تقول: لا. لما قد تشتهيه نفسك من حرام لكنك تقول: لا لما أباح الله لك من حلال.

*** تقوية الإرادة:**

ومن دروس الهدى النبوى هنا: تقوية الإرادة؛ لتظل ممسكة بزمام المبادرة:... سنته فى تعجيل الفطر. تمرات وجرعات من ماء. دون الاسترسال مع شهوة الطعام وإلا فإن الانسياق وراء الرغبة فى الطعام عند الفطور يعنى ضعف الإرادة التى قيدها الصوم.... ثم إذا بها تنفلت عند أول بادرة.

فى الوقت الذى يقف فيه الرسول ﷺ فى موقعه الأعلى يعلم الناس كيف يظلون أحراراً بهذا التحكم فى الرغبات التى توشك أن تنطلق... لتعوض ما فات!.

وتأمل موقف الإسلام وكيف نوه بالصدقة من يد المريد الشاعر بها... تربية للإرادة. فلن تنال البر حتى تنفق مما تحب... وأن تتصدق وأنت على غاية ما تكون حباً فى هذا المال. أن تتصدق وأنت صحيح... فى صحبة آمال عريضة فى البقاء. ثم... وأنت شحيح تضن بالمال من أجل العيال... فإذا اقتحمت هذه العقبة... فقد فزت فى الامتحان... وبنفس القوة.

وإذا سلمت لك إرادتك فى رمضان... مفطراً.. وصائماً... فقد نجحت فى الامتحان.. مرتين؛ حين اتبعت سنة رسولك ﷺ. وحين حظيت بثوابك جزاء هذا الاتباع. وبضدها تتميز الأشياء.

وهكذا صام سلفنا... وهكذا أحبوا الصيام.. كان العابد الزاهد يبكى... فلما سئل: لم تبكى؟ قال: أبكى ألا أكون مع الصائمين... ولا مع الذاكرين. وقد كان بعضهم يبكى على ليلة نامها... وعلى يوم أفطره... وساعة غفل فيها عن ذكر الله تعالى.

وأين هذا من أصحاب الإرادات الطرية... والذين كان رمضان فى حياتهم سجناً مظلماً... حتى إذا جاء العيد فرحوا بما عاد إليهم من لهو طال حنينهم إليه.

قال أحدهم:

ولما انقضى شهر الصيام بفضله ... تجلى هلال العيد من جانب الغرب

كحاجب شيخ شاب من طول عمره ... يشير لنا بالرمز للأكل والشرب

ولقد كان الطغرائي أشد الناس فرحاً بانقضاء شهر رمضان وذلك قوله:

قوموا إلى لذاتكم يا نيام ... ونبهوا العود وصفوا المدام

هذا هلال الفطر قد جاءنا ... بمنجل يحصد شهر الصيام

ويقول ابن المعتز:

أهلا بفطر قد أتاك هلاله ... فالآن فاغد إلى السرور وبكر

فكأنما هو زورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

وما كان فرح هؤلاء الشعراء بهلال العيد إلا تعبيراً عن الرغبة الحبيسة فى الترف. ويوشك أن يحشر معهم أولئك الذين يتنكبون هدى الرسول ﷺ فينكبون على الطعام عند الإفطار... بلا انتظار.. إنهم تلاميذ أغبياء فى مدرسته ﷺ.. أحبوه.. لكنهم لم يفهموا الدرس!.

*** بيت الداء والخطوة الأولى على الطريق:**

ـ المعدة بيت الداء... وأخطر أمراضها جميعاً: أنها تستدرجك بشهواتها فإذا أنت ـ ومن حيث لا تحتسب ـ إذا أنت عبد لها.

وأمرّ ثمرات العبودية ما ترميك من أمراض.. نجا منها البسطاء من الفقراء لتكون من نصيب الأغنياء المسرفين الواقعين فى إسارها.

وأول خطوة على الطريق... فى رحلة اللقمة:

تستمتع المعدة برؤية الطعام.. أو شمه.. أو حتى تخيله.. وعندئذ: تشتهيه.. وتتطلع إليه.

أ ـ تتأهب خمس وثلاثون مليوناً من الغدد فى جدارها.

ب ـ ثم تفرز خمائر ذات مخاط.

جـ ـ ثم قدراً من ماء النار.

د ـ تفرز لتراً ونصفاً من سائل قلوى. . . ينظم الهضم.

*** من آثار رحمة الله:**

وانظر إلى آثار رحمة الله تعالى: إن المعدة من لحم.. ولكنها تفرم آقوى منها! وبقدرة القادر سبحانه لا تفرم نفسها.

ثم إن ماء النار المنبعث من جدارها. يتجه بقدرته تعالى رأساً إلى الطعام ولا يتجه إلى جدارها، وإلا ثقبه.. بل دمره. وذلك بواسطة السائل القلوى سالف الذكر.

*** رحلة اللقمة ومسؤولية الإنسان:**

هذا هو بيت دائك ودوائك فى نفس الوقت.. هيأه الخالق سبحانه وتعالى لك... فما هى مسؤوليتك.. وبخاصة فى شهر الصوم لتتم نعمة ربك عليك؟

الأطباء الحاذقون دليلك على الطريق.. حتى تصل إلى الغاية بسلام.

فماذا يقول الطب هنا:

عند الامتناع عن الطعام، تحدث عمليتان:

أولهما: انتقال الجسم إلى التغذية الداخلية، اعتماداً على ما تدخره الأنسجة للحصول على الطاقة اللازمة لاستمرار الحياة.

الثانية: وهى الأهم فى الدور العلاجى للصوم: استمرار وزيادة نشاط عملية الإطراح.. أى تخليص الجسم من الفضلات والسموم. خاصة فى الأنسجة المريضة.

ويعنى ذلك: راحة الجهار الهضمى. وراحة الجهاز الهضمى معناها: أن يكون الصوم فرصة لتجدد الجسد. حتى تعود وظائفه أنشط.. والدم أصفى.. وأغنى بكريات أكثر شباباً.

وبالتالى أكثر قدرة على مواجهة المصاعب.. بتجديد هذه الاستحكامات الداخلية المناعية ضد الغزاة المهاجمين!.

ويؤكد لك الأطباء هذه الحقيقة؛ فالجسم يفرط أولاً السكريات والدسم والبروتين... لكنه ضنين بالمعادن. ولذلك لا يحدث فقر دم.. بل الذى يحدث

هو: حطام كرات الدم الحمراء يتحول إلى كرات شابة فتية.

ثم يقولون عن هذه التغذية الداخلية: إن الجسم يغذى نفسه من المخزون فى أنسجة الجسم المختلفة؛ باستثناء القلب والجهاز العصبى... تماماً كما يحدث فى الجيوش الواعية، إذا ما اشتد الضغط عليها: إنها تظل محافظة على قيادتها.. وعلى وسائل الاتصال فيها.

*** مضار الشبع:**

والتخمة على رأس العوامل المانعة من الوصول.. لقد ظل بعض الصحابة يتغذى على ماء زمزم عشرات الأيام... وهو ما اشتق منه علماء وظائف الأعضاء قاعدة تقول: إن الإنسان قادر على الصيام أربعة وسبعين يوماً.. شريطة أن يأخذ حظه من الماء.

وإذا هيأ الحق تعالى جسومنا لهذه الدرجة من التحمل فلم التنافس على الطعام... حتى فى شهر رمضان؟.

ولو علم المتنافسون ما فى الشبع من مضار... لصبروا أياماً.. صبرا يعفيهم من الآلام سنين.

يقول أطباء النفوس. كاشفين عن عواقب الشبع:

١ ـ فيه ذهاب الخوف من الله تعالى.

٢ ـ تتراجع نسبة النشاط.. فلا ينهض لطاعة رغبة فيها.

٣ ـ إذا سمع المترف الحكمة... فلا صدى لها فى قلبه.

٤ ـ ولو تكلم ما تأثر به أحد.

٥ ـ هيجان الأعصاب من ضغط الطعام.

٦ ـ من أجل ذلك يتخبط... ويكون الخذلان الذى من مظاهره كما يقول ذو النون المصرى:

١ ـ يكون كيِّسا فى أمر دنياه... أحمق فى أمر آخرته.

٢ ـ إذا ووجه بحق غضب.

٣ ـ يستقل الكثير من خالقه سبحانه ويستكثر القليل من شكره.

٤ ـ ينصف نفسه... ولا ينصف غيره من نفسه.

٥ ـ يقل حياؤه من الله تعالى على جميل ستره.

٦ ـ ينسى الله تعالى في مواطن الطاعة... ويذكره عند الحاجة.

وقد أثبت الطب الحديث صلة الغذاء ونوعيته بعملية التفكير.. فصح ما توقعه الأقدمون.

يقول الأطباء: إن الأغذية الدسمة ـ عسيرة الهضم ـ متعبة للكبد والمعدة والأمعاء. كما أنها تزيد من كمية الدم الوارد للمعدة لإتمام عملية الامتصاص على حساب الدم المتجه أساساً للمخ.

وإذن: فالتخمة من شأنها أن تضعف القدرة على التفكير... إلى جانب ما يترتب على ذلك من خمول.. تذبل به قدرة الإنسان على العمل بجد ونشاط.

*** من هدى السنة:**

وهذا هو رسولنا ﷺ إمامنا على الطريق... وفى ضياء هديه ﷺ ندرك الخطة المثلى... التى تجعل من الصوم فرصة عملية للحفاظ على أجهزة الجسم... حتى تخرج من الصوم أكثر شباباً.

كان ﷺ: «**يفطر قبل أن يصلى يفطرعلى رطبات. فإن لم تكن رطبات فتميرات. فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء**» رواه أبو داود والترمذى.

وقال ﷺ: «**إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة، فإن لم يجد تمراً فالماء، فإنه طهور**» رواه أبو داود، والترمذى وابن ماجه وابن حبان.

ماذا فى الحديثين الشريفين من معان:

نسأل الطب... فيجيب بما ملخصه بعد أن نمهد لذلك بما يلى:

إن الرسول ﷺ يلفت نظر أمته إلى ما فى التمر من بركة تجعله متعدد الفائدة... وخاصة للصائم. فإن لم يتيسر... فليكن الماء بديلاً.

وقبل أن ينبه أمته إلى هذا المنهج الراشد كان هو ﷺ قد سبقهم إلى تطبيقه... لأنه «أول المسلمين». فكان يبدأ بالرطب... بالدرجة الأولى. ولما

كان الرطب أندر وجوداً. . . حث أمته على المتاح من التمر أو الماء.

*** رأى الطب:**

يقول الأطباء:

إذا بدأ الصائم باللحوم والخضروات والخبز. . . فقد بدأ بالبروتينات والدهنيات والنشويات. وهذه وإن تحول جزء منها إلى سكر. . . إلا أن ذلك يتم بعد عملية هضم مضنية قد تستمر أربع ساعات.

ومعنى ذلك أن الرسول ﷺ ـ وهو الرؤوف الرحيم بأمته ـ يعينهم على أمر الله. . . حين يوفر على المعدة هذا الجهد المضنى بما يلى:

١ ـ إعطاء الجسم حاجته من الطاقة الحرارية. . . عن طريق الرطب أولاً.

٢ ـ تم تزويده بما يبل العروق عن طريق ما فى الرطب من ماء.

٣ ـ فإذا لم يكن. . . فالماء وحده يكفى. . . إلى حين على الأقل، وبهذا يكون الصائم قد أعان معدته على امتصاص ما فى الرطب من سكر هى مهيأة لامتصاصه على الفور. . وبلا معاناة. . . عكس الدهنيات وأخواتها.

٤ ـ ويتم ذلك كله عبر مرحلتين تساعدان المعدة على ممارسة وظائفها على المدى الطويل. . . بلا مقاومة. فقد كان ﷺ يفطر ـ كما يشير الحديث ـ على مرحلتين:

[كان يعجل فطره أولاً على التمر والماء، ثم يصلى المغرب، ويكمل بعد الصلاة فطره].

ونسأل أهل الخبرة والاختصاص عن حكمة التدرج النبوى فى الإفطار، فيقولون: بأن هذه الفترة القصيرة (١٠ ـ ١٥ دقيقة)، التى تستغرقها الصلاة، كافية تماماً لامتصاص المادة السكرية، التى بدأ بها الصائم فطره، وعندئذ يرتفع مستوى السكر فى الدم ويزول شعور الصائم بالجوع. . . فإذا عاد إلى طعامه، لم ينل منه إلا حاجته دون إفراط.

وفى نفس الوقت فإن الكمية اليسيرة التى يبدأ بها الصائم فطره، تعد منبهاً معقولاً لجدار المعدة فينقبض، ولغدد اللعاب وغدد جدار المعدة فتفرز عصارتها،

استعداداً للعمل الأكبر القادم بعد الصلاة مما يحسن الهضم والامتصاص.

ولكن الصائم إذا أكل طعامه كله دفعة واحدة، تسبب فى كثير من الاضطراب، حيث تقل قدرة عضلات جدار المعدة على التقبض والتقلص، كما يقل معدل إفراز العصارات.. ويستتبع ذلك حدوث تلبك معوى وانتفاخ مزعج وتكوين للغازات، مع آلام يشعر بها الصائم تحت ضلوعه فى الجانبين، وضيق بالصدر والنفس. هذا فضلاً عن إحساس بالخمول والتراخى والميل إلى النعاس، نتيجة سحب الكثير من الدماء (نحو ٣٠٪) إلى منطقة الهضم، لمجابهة الوجبة الكبيرة الدسمة، والذى يكون على حساب كمية الدم الواردة إلى أعضاء الجسم الهامة، وخاصة المخ. إنه الأدب النبوى الذى وعاه التاريخ، وكتبه بحروف كبيرة مضيئة، ليجد فيه الناس الحكمة المضيئة الهادية، على طول الزمان .

*** من بركات السحور:**

يقول ابن القيم فى «زاد المعاد»: «كان النبى ﷺ يعجل الفطر ويحث عليه. ويحث على السحور ويؤخره. ويرغب فى تأخيره».

وفى البخارى: **«تسحروا، فإن فى السحور بركة»** متفق عليه،

من ذكريات شبابى أننى كنت أركز على طعام الغذاء... مهملا طعام الفطور متعجلاً فيه.

لكن الوالد يرحمه الله نبهنى إلى أهمية الفطور... من حيث إن حركة الإنسان تتركز من الصباح حتى بعد الظهر... وإذن فنشاط الإنسان اليومى محمول على طعام الفطور الذى لابد أن يكون بحيث يزودك بالطاقة اللازمة... دون طعام الغذاء الذى نستسلم من بعده للنوم.

ذكرت هذا وأنا أتأمل الحديث الشريف... وهو يرغب فى تأخير السحور.

ومن معانى هذا التأخير: تزويد الصائم بالطاقة المحركة طول اليوم... لقربه من النهار.

ثم جاء العلم الحديث فأكد صدق ما ذهب إليه... يقول أحد الباحثين:

[ولا شك أن السحور كله بركة، وفى تأخيره خير كثير، كشف عنه العلم، وأكده بحث العلماء. ولعل من بركات السحور، أن الصائم يتوسل به على

استكمال حاجاته الغذائية اليومية، إذ أن وجبة الإفطار وحدها لا يمكن أن تفى بهذه الاحتياجات. والصائم الذى لا يتسحر ينتهى به الشهر منهك القوى، ناقص الوزن كثيراً، معرضاً للإصابة بأعراض نقص عناصر الغذاء.

والصائم الذى لا يتسحر، يضطر جسمه لسحب مخزون الجليكوجين من الكبد - مبكراً - ويحوله إلى سكر جلوكوز، ليكفيه نحو ٦ ساعات... ولكن اليوم طويل ممتد، ولا مفر... إذ لابد للجسم أن يستكمل حاجته من الطاقة، عن طريق حرق المخزون من الدهن تحت سطح الجلد وبالأعضاء. وهنا كثيراً ما يشعر الصائم بصداع شديد وإعياء، وربما أصابته رعشة، كما يصاب بالإرهاق عند أقل مجهود، هذا فضلاً عن العطش الشديد الذى يستشعره، لأن الدهون تحتاج فى حرقها واستقلابها لكميات غير قليلة من الماء.

ومن بركات تأخير السحور: إتاحة فرصة زمنية طويلة (بمتوسط ٧ - ٩ ساعات) ما بين الفطور والسحور، يتمكن خلالها الجهاز الهضمى من هضم طعام الإفطار فى كفاءة وسهولة. وخلال هذه الفترة تحدث نوبة من التبرز، فتصبح أجهزة الهضم خالية تقريباً من كل مراحل الهضم... والجدير بالذكر أن هضم المواد السكرية والنشوية يحتاج من ١ - ٣ ساعات، وهضم البروتينات يستلزم من ٣ - ٥ ساعات، أما الدهون فتحتاج فترة أطول تتراوح ما بين ٤ - ٧ ساعات وهكذا... فإذا تسحر الصائم، كان جهازه الهضمى مستعداً لتلقى كمية الطعام الجديدة، دون أن يكون ثمة بقايا طعام سابق. ومن بركات تأخير السحور، تقليل إحساس الصائم بالجوع والعطش أثناء اليوم.

وشعور المرء بالجوع مرتبط بفراغ المعدة وبانخفاض مستوى سكر الدم... فإذا تسحر الصائم مبكراً، فرغت المعدة من محتوياتها خلال ١ - ٤ ساعات... وبعد قليل من الوقت، يهبط السكر فى الدم، ويشعر الصائم بجوع شديد مبكراً. ولكن الصائم الذى يؤخر سحوره، يقلل من ساعات صيامه الفعلية، ويتأخر لديه شعور الجوع... والإسلام - كما نعلم - لا يهدف مطلقاً إلى العنت والمشقة، بل إنه يبغى التيسير لقوله تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وبعد: فإن القليل من الأكل... يحملك. أما الكثير: فتحمله أنت!.

وهذه القاعدة مرتبطة بأخرى تقول: لا يفيدك ما تأكل... وإنما يفيدك ما تهضم!.

وإذن فالكثير المزدحم فى معدتك... يضرك... ولا يفيدك... بقدر ما يتحول النزر اليسير فى معدتك إلى دماء... ثم طاقة تدفعك إلى الأمام. ومن هنا قالوا فيما يشبه المعادلة السهلة.

أكل القليل... مما يضر... أصلح من الكثير الذى لا يضر!.

*** المسلمون اليوم:**

وغداً يشرق العيد... وما زال بأس المسلمين بينهم شديداً. أشداء على المؤمنين... رحماء على الكافرين!!.

وهكذا كما يقول المربون: وضعنا الندى فى موضع السيف. ووضعنا السيف فى موضع الندى.

ولكننا ـ من وراء ذلك ـ نسمع فى يوم عيدنا نداء النبى ﷺ: **«استعن بالله ولا تعجز»**.

وكما قيل بحق: وخير ألف مرة من الحزن الصامت المكتوم، أن نمارس الفرحة، وأن نمارس معها التمرد على الواقع الحزين.

ولنجعل من ثمرات صيامنا وقيامنا فى شهر القرآن.. أن نبيع أنفسنا لله وأن نسمع النداء المتردد من بيت الله الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله نداء «وإسلاماه».

وليكن مع صدى هذا النداء يوم العيد أن تقول: لبيك ربنا لبيك... تلبية صدق. وعمل. وبيعة على الجهاد. قبل أن يأتى عيد ولا عيد وتقام مراسم الزينة على ساحة من الخواء. ولنجعل فرحتنا فى هذا العيد فرحتين: فرحة رضا وشكر على نعمة الله علينا فى رمضان الذى نودعه. وفرحة أمل معقود على بذل بغير حدود... وعطاء لا يعرف النفاد. أ.هـ.

*****

يقف الصوم على رأس الوسائل التى ينسق بها المسلم علاقته بخالقه ومجتمعه... فى أصح الأوضاع ملاءمة لفطرته... بما يسلحه به من ملكة التقوى.. وما تثمره التقوى من فضائل يحقق بها إنسانيته... التى هى مناط سعادته. وذلك قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: الآية ١٨٢] .

ويرسم حرف الترجى «لعل» بعد المسافة بين الصائم وتحصيل ملكة التقوى.. حتى لا يظن أن مجرد الإمساك عن الطعام ماف فى الوصول إليها.

فلابد من لون من الصيام تخوض به على مدى الشهر طريقاً صعباً... محفوفاً بالمكاره. فتكسب كل يوم أرضاً جديدة... بدل أن تتحول أيام صومك إلى قفزات... إلى أعلى.. تعود منها آخر الشهر إلى ذات النقطة!.

ومن الوفاء للحقيقة أن يواجهك القرآن بمشقة التكليف حتى تستجمع قواك... وتحقق النصر على عدوك بالسلاح الذى يفل الحديد وهو: سلاح العزائم... والمادة التى تطفئ النار. وهو اتحاد الصفوف.. والمسن الذى يشحذ هذين وهو: العفة، والصبر.

وبهذا المعنى يتحول الصوم إلى سلاح ماض فى معركة القيم... بما يمنح المسلم من حرية يستعلى بها... ويفوت عن طريقها غرض الذين يرمونه بالشهوات من أعداء الإسلام. ومن رحمة الله تعالى أنه لم يترك الصائم وحده يصارع الموج... بل إنه سبحانه وتعالى يظلل الموقف بمسوغات تعينه على أمره تعالى: فلست وحدك أيها المسلم على الطريق.. فقد: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ .

ومع هذا... فبإمكانك أن تفطر ساعة السفر أو المرض. بل إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه. ولكن... مع التلويح دائماً بالمستوى الأفضل الذى ينبغى أن تظل الأبصار دائماً مشدودة إليه... حتى لا تخلد بها الراحة إلى المستوى الأدنى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: الآية ١٨٣] .

ومن وراء ذلك كله إرادة الله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

*** الالتزام بالإقناع:**

وحين يتم الصيام فى هذا الجو الظليل.. تتأصل فى النفس ملكة المراقبة ويتحقق التغيير المطلوب من داخل الإنسان... الذى يؤدى الفريضة مشغوفاً بها... مقبلا عليها.

ولقد كان من الممكن فرض الصوم بكلمة واحدة، صارمة.. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ وسوف تكون الاستجابة.. ويكون الالتزام.. بحكم الإيمان الذى هو عهد بين المسلم وربه... ولكن المنهج القرآنى.. قضى أن يكون الالتزام فى إطار من حرية الإنسان عن طريق الإقناع المفضى به إلى عمل يصبح جزءاً من حياته.

قال أحد المفكرين: ماذا يفيد الناس من أية كتابة مهما كان نوعها... ما لم تنبت فيهم إرادة تنزع بهم من بواطن أنفسهم؟ فينبذوا الحياة المريضة التى يحيونها هنا على الأرض.. ليعيشوا حياة الملائكة فى السماء.

إنها الإرادة التى تمضى بصاحبها نحو أهدافه... وبدونها يظل ما نكتبه كالهباء. وبهذا التقوى... وثمرتها من الإرادة الحرة... يصبح الصوم نعمة تذكر فتشكر... على ما يقول سبحانه... ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾... وتنهار حجة الذين يجعلون الصوم حملاً ثقيلاً.. وباسمه يسخطون على الناس... ويتكاسلون فى أعمالهم... هؤلاء الذين يمنون على الله أن صاموا.. والله تعالى يمن عليهم أن هداهم لهذا الصوم درساً تربوياً... من شأنه أن يزودهم بالميزان الضابط للسلوك.. وصولاً إلى حياة أفضل فى ظل من حرية اكتسبوها بالممارسة. وكانوا بها أساتذة الدنيا.. ورجالها.

*** روح الصيام:**

والمهم أن تظل روح رمضان هذه باقية أبدا.. فيما يتلوه من أيام.

ولابد لنا هنا من وقفة... تتضح بها معالم الطريق إلى تحصيل هذه الروح: قد تمسك عن الطعام.. لكنك تدخر فى بيتك ما لذ وطاب من طعام وشراب... من متع الحياة... التى لا تراها إلا فى رمضان!.

فإذا أقبل الليل. أتخمت بطنك بهذا النعيم. . . فأحبطت فى نفس الوقت حركة الإرادة. . وخدشت معنى الحرية على قدر هذا الإفراط!.

فإذا حاولت بعد ذلك أن توقظ المعدة المتخمة بزاد من الذكر والقيام بليل. . لم تطاوعك المعدة التى قعدت بها المتعة الزائدة، بل إن بعض الناس يبيح لنفسه فى رمضان ما لا يبيحه لها فى غيره من الأوقات حين يرد السيئة بعشر أمثالها. . . لأنه صائم. . . إن لم يكن هو البادئ بالعدوان! ومعنى ذلك أنه فى ربيع دائم من الطعام، ولغو الكلام. وأيضاً. . حرية الخصام!.

ويمضى الشهر فلا يؤنس روحك بتقواه. . . ولا تحصل عدة من قواه. . وهذا هو الواقع الذى نشاهده بل نعيشه فى كثير من المجتمعات الإسلامية. لكن الظن بالمسلم أن ينتصر بإرادته فى معركة متعددة الجبهات وبدل أن تستسلم للإغراء فتجعل السنة كلها لهوا ولعبا. . تحاول أن تستعلى لتكون حياتك كلها. . رمضان. . زهداً. . . وسخاء وتحملاً. . تتحرر به من جواذب النفس.

والغريب أن لأخبار الناس جاذبية خاصة. . . لحظة الجوع الذى يستعين عليه البعض بالخوض فيها. . . ونشرها وبذلك يفوتون على أنفسهم فرصة ذهبية. . إن لم ينتهزوها ذهبت. . . ولاتعود.

ويرحم الله الأستاذ الزيات حين قال مصوراً وظيفة الصوم: (إن رمضان سنة لا شهر. . . وذخيرة لا نفقة ومصحة لا ملهى، ورياضة. . . لامتاع.

نروض فيه أنفسنا على الخير لتتمرن عليه. . . ونعالجها به من الشر لتبرأ منه.

وليس الغرض من علاج النفس والجسم أن ينقضى أثره الطيب بانقضائه. . فإن ذلك يخالف حكمة الشارع من الصوم.

إن المريض الذى يطلب العافية فى مدينة من مدن المياه الطبية لا يطلبها للمدة التى يقضيها فى المصحة. وإنما يطلبها لتكون عماداً قوياً لما وهن من جسمه وزادا نافعاً لما بقى من عمره.

وما أبعد المسلم إذا اعتقد أن الصلاة لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر إلا وهو فى المسجد. وأن الصوم لا يعصمه من اللغو إلا وهو فى رمضان وأن الصدقة لا تطهره ولا تزكيه إلا وهو فى العيد.

خذوا إذن من ربيع النفس ما تأخذ الأرض من ربيع الطبيعة. خذوا لعبوس حياتكم من طلاقته. ولهموم طبيعتكم من طراوته. ولجدب دنياكم من خصوبته. ولا ضطراب عيشكم من سكينته. ولا عوجاج سلوككم من استقامته. ولشتات كلمتكم من وحدته).

*****

من آثار بدر

انتصار الأمة فى معركة القيم

بعد أن تضع الحرب أوزارها. . . ما أكثر ما يشاع. . . وما يذاع. يتكفل بذلك قوادها الذين اصطلوا بنارها. . . أو الذين أداروها من غرف نومهم. . . أو مكاتبهم!. يطلقون من بعدها سحباً من الدخان. . . فيما يسمى «مذكرات» يضيفون بها إلى حسابهم. . . مآثر غيرهم من الجنود المجهولين.

ومعنى ذلك: أن الرواية. بانتهاء الحرب الساخنة ـ لا تتم فصولاً ولا أصولاً وإنما القضية: انتهاء الحرب الساخنة. . . لتبدأ حرب المذكرات وكل يغنى على ليلاه وكل يدعى وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا. ولندع كل أمة تدعو إلى كتابها. . . لندع هؤلاء الذين يتاجرون بالمذكرات. . . فى أعمار البشر. . لنكشف عن طبيعة الجهاد فى الإسلام كوسيلة من وسائل الدعوة.

وكيف كان جهاداً. . لا حربًا. . . جهادا للنفس أولاً. . ثم للعدو ثانياً ينجلى فى النهاية عن معان ودروس تسدِّد خطى الأمة على الطريق. . . ولم يكن قصاراه: أشلاء. . . وأنات. . . ومذكرات. وإنما هى الذكرى. . . تنفع المؤمنين. وفى طليعة مواطن الذكرى:

*** غزوج بدر الكبرى:**

ومن مشاهدها الغنية بالدروس ذلك المشهد الحافل بالجلال والجمال والذى نعطر اليوم به ذكراها:

إنه مشهد الإخوة السبعة:

الأشقاء منهم: عوف بن الحارث. ومعاذ. ومعوذ. أبناء «عفراء الأنصارية» من زوجها «الحارث».

ثم إخوتهم لأمهم: «إياس» و «عاقل» و «خالد» و «عامر» من زوجها «البكير ابن عبد ياليل».

ومع اختلاف الوالد. وقسوة الظروف. . . لكن الأم الرؤوم تقدمهم جميعاً

أبطالاً فى ساحة الوغى.. ويطاوعها قلبها... قلب الأم... ليواجهوا الموت جميعاً.

ولعمرى إنه لدرس بالغ الأثر فى الشجاعة التى هى منحة الإيمان... والتى استنزل بها المسلمون نصر الله والفتح.

وفى الوقت الذى استسلم فيه أبو لهب للخوف.. فلم يجرؤ على الاشتراك فى المعركة جاعلاً من العاص بن هشام نائباً عنه... ليقدم روحه نظير دين عليه... فى عملية ربوية لا نظير لها...

فى هذا الوقت بالذات، يعلن الإيمان عن نفسه فى شخص المرأة المسلمة التى انتصرت بإيمانها على ألد أعدائنا: وهو الخوف..الخوف الذى يثبط القلوب... فلا تجنى ثماراً هى منها بالمكان القريب.. ليطرده الإيمان الذى يثبت الله به القلوب.. فلا تخاف.. والأقدام فلا تزل!.

وإذا كانوا يقولون فى بعض بلاد الدنيا فلان «تربية امرأة» إزراء به وسخرية منه..فقد كانت «عفراء» هى الرد الإلهى الذى أثبت الله تعالى به جدارة المرأة المسلمة بالتربية.. وفى أعلى مستوياتها... حين صاغت من أولادها رجالاً أسوياء. لم تفرقهم مذاهب الفن. ولا ملاعب الكرة... وإنما وحَّدهم الإيمان.. فكانوا على قلب رجل واحد... وجهاً لوجه أمام الكافرين.

ولقد كان شرفاً عظيماً أن ينتسبوا إلى أمهم «عفراء»... وبلا حرج!! على عكس ما قد يحدث اليوم لو نسب رجل إلى أمه.. لقد كان المشركون ينادون ابن مسعود رضى الله عنه: بابن أم عبد.. استهزاء... وأصرَّ ﷺ أن يناديه أيضاً بها... ولكن: تكريماً!.

ولقد كان الصحابى عبد الله بن عمرو بن قيس رضى الله عنه ينادى وفى مجلسه ﷺ بأمه... أم حرام... وكان ابن خالته أنس بن مالك يتأذى من ندائه بأمه... ولكن لماذا يتأذى ابن قيس أن ينسب إلى أمه... أم حرام وهى أول شهداء البحرية فى الإسلام؟!.

ونعود إلى ساحة بدر.. فماذا نرى؟

إن بلال بن رباح.. يقتل سيد الأمس: أمية بن خلف. وعلى يد «عوف»

وأخيه «معوذ» كانت نهاية فرعون هذه الأمة «أبى جهل»: نفذا إليه كالسهم المارق... فصرعاه... ثم تركاه لابن مسعود رضى الله عنه ليجهز عليه.. وكان من تدبير الله تعالى أن يثبت للناس أن للدعوة ربا يحميها... حتى يخفف الدعاة من غلوائهم... ليتركوا النتيجة لله تعالى... ومن تدبيره تعالى هنا أن أصغر قدم لصحابى.. تطأ رقبة أبى جهل... مؤكدة أنها فعلاً تزن جبل أحد!.

ثم تخلو الساحة من مراكز القوة التى تسقط اليوم على يد فتيان فى عمر الزهور.. ولكنها كانت فى قوة الأسد الهصور.

وبعد هذه اللمحة العابرة عن المعركة الدائرة... وما فيها من دروس يثبت الله بها قلوب الذين آمنوا.. وبخاصة الدعاة.

بعد هذه اللمحة.. تبدأ حرب الأعصاب... والتى تكشف عن أخلاق المنتصرين... ونزوات المنهزمين.

والقصة كما رواها ابن سعد فى الطبقات: عن «الربيع بنت معوذ» قالت: دخلت فى نسوة من الأنصار على «أسماء بنت مخربة» أم أبى جهل، فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكانت تتاجر فى العطر اليمنى. فكنا نشترى منها. فلما جعلت لى فى قواريرى ووزنت لى. كما وزنت لصواحبى قالت: اكتبن لى عليكن حقى. فقلت: نعم: أكتب لها على الربيع بنت معوذ فقالت أسماء: وإنك لابنة قاتل سيده؟!! قلت: لا: ولكننى ابنة قاتل عبده... قالت: والله لا أبيعك شيئاً أبداً!!.

فقلت: وأنا والله لا أشترى منك شيئاً أبداً فوالله ما هو بطيب ولا عَرْف.. وقالت الربيع: والله ما شممت عطراً أطيب منه ولكنى غضبت!.

وفى أسد الغابة: أن أسماء قالت: حرام علىّ أن أبيعك من عطرى شيئاً.. فقالت لها الربيع: وحرام على أن أشترى منك شيئاً.. فما رأيت لعطر نتناً غير عطرك... وإنما قلت ذلك لأغيظها!!.

لقد ظل مصرع أبى جهل غصة فى حلق أمه أسماء... والتى حاولت أن تنتقم من المسلمين فى شخص بنت معوذ بهذه المقاطعة الاقتصادية... التى تتطور اليوم لتأخذ صورة منع السلاح عن المسلمين حتى يظلوا ضعفاء ولا يمكلون الدفاع

عن أنفسهم.

ولقد كان للفاجعة بُعدٌ آخر فى حس أم أبى جهل: فقد فرّ أخوه «الحارث» من المعركة كالفأر المذعور تاركاً أبا جهل قتيلاً... شلوا.. بلا رأس طالما عصى بها الله ورسوله.

ولك أن تتصور عفراء الأنصارية والتى وَحَّدت بين بنيها السبعة.. فى الوقت الذى فشلت فيه أسماء أن تفعل ذلك! لتدرك عمق المرارة.. هذه المرارة التى بلغت حد التشبع حين دخل الحارث أخو أبى جهل فى الإسلام... يوم الفتح... فكان إسلامه ضربة موجعة فى قلب الأم الثكلى والتى بدأت تنتقم لنفسها بهذا المسلك الغاضب.

إن أم أبى جهل تملك من العطر أنْفَسَه.. وناهيك بالعطر كنزاً فى حياة المرأة... ولم تكتف بحرمان بنت معوذ منه لكنها تحيى مع المتع قيمة جاهلية عفنة حين قالت: إن معوذاً تجرأ وقتل سيده المطاع أبا جهل؟!!

وهنا نرى الإباء على الجبهة الإسلامية يعلن عن نفسه وعلى لسان بنت معوذ رضى الله عنها.

إن للنصر مضاعفاته... ومن هذه المضاعفات: صمود المؤمنين الذين يواصلون رحلة الكفاح فى السلم... كما واصلوها على الجبهة العسكرية.

إنه الثبات فى معركة القيم تحدياً لأعداء هذه القيم.

والذين تنازلوا عن أرواحهم رخيصة بالأمس.. فى سبيل الله لهم أقدر على التنازل عن مباهج الحياة.. ومنها شمة من العطر.. تذهب مع الريح!.

وهذا ما فعلته بنت معوذ.. والتى أرت العدو من نفسها قوة حين قبلت التحدى ورفضت العطر فى إباء... وعليه مزيد من الازدراء. وإنها لمستعدة أن تتحمل حرب التجويع.. استجابة لمطالب الإيمان.

وقبل هذا... وفوق هذا لقنت أم أبى جهل دروساً:

أولاً: صححت لها مفهوم السيادة ومفهوم العبودية: فلم يكن أبو جهل سيداً.. بل كان بالكفر عبداً. قتله أبوها «معوذ» الذى صار بالإيمان سيداً يمرغ الرؤوس العفنة فى التراب.

ثانياً: لما أحست أسماء بالهزيمة أمام ذلك الرد القاسى ـ لجأت إلى الحرب الاقتصادية. . مقسمة على ذلك. . . فى حركة عصبية تعكس خيبة الأمل.

ثالثاً: وقبل أن تنهى قسمها تجيئها اللطمة قوية من «الربيع» بقسم مماثل يحرم عطرها.

وعلى التحريم مزيد من السخرية منها. . . ومن عطرها. . إرادة إغاظتها. . . وإعلامها بأن دولاب الحياة لن يتوقف إذا خلا البيت من عطر أم أبى جهل. ويبقى الموقف شاخصاً فى وعى الأمة لا يغيب لمعلم من معالم الدعوة بالقدوة الحسنة.

أما بعد: فقد مر بك فرار الحارث بن هشام من المعركة.

ولكن الدعوة تفتح صدرها له. . . فأعلن إسلامه. . . لما تعقبه حسان بن ثابت فعنفه. . وعيره. . وقبل ذلك لما كان من حسن تعامل الرسول معه.

ووقف الحارث إلى جانب حسان يدافع عن قضايا الإيمان. . . والتى يحولها بالشعر إلى حقائق نفسية شعورية تتمشى فى العروق دما. . . وتخفق فى القلوب وجيباً.

وإذا كان قد أنشد بالأمس متفاخراً:

من كان يسأل عنا أين منزلنا ... فالأقحوانة منا منزل قمن

إذ نلبس العيش صفوا لا يكدره ... طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن

ولكنه اليوم يعيش الإسلام. . وفى زمن عمر رضى الله عنه يخرج مجاهداً. . . فيتبعه أهل مكة يبكون. فيقول لهم: إنها النقلة إلى الله. وما كنت لأوثر عليكم أحداً. . . ويبقى إسلامه أملاً على طريق الدعوة: أملاً لن ينطفئ أبداً.

أبداً. . لن يكون زبداً.

*****

من أسرار الصيام

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٢].

تحديد الغاية من عبادة ما... منهاج راشد تعلمناه من القرآن الكريم: فالزكاة مثلاً غايتها الطهر:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

والصلاة: تنهى عن الفحشاء والمنكر:

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وغاية الحج: تنقية الروح... والاجتماع لمصلحة الرسالة وحملتها فى ظل من رعاية الله تعالى:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

وقد حدد القرآن الكريم غاية الصوم فى: التقوى.. على نحو ما تشير إليه الآية الكريم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

وكشف النقاب عن مقصود العمل محمود العقبى... من شأنه أن يركز الجهود... ويجمع الخيوط.. وصولاً إلى هذا المقصود.. بدل أن يسير المرء عرضاً على غير طريق: يشرق مرة.. ويغرب أخرى... فيتبدد منه الجهد.. ويكبو به الجواد فى نهاية المطاف كهذا المنبت: لا أرضاً قطع.. ولا ظهراً أبقى.

وتصوروا معى طيارا مغامراً.. ركب طائرته متجهاً لا إلى شىء!. اللهم إلا التحليق عبثاً بلا هدف مرسوم.

وتصوروا أيضاً زميلا له... لحق به فى رحلته المبهمة بعد ساعتين من

طيرانه. . فمن منهما السابق. . . ومن المسبوق؟

قد تقول: لقد سبق الأول!. وأنا أقول لك: لا!. لأننا نسميه سابقاً لو كان هناك هدف محدد. . يقترب منه. . وسيصل إليه قبل زميله الثانى.

أما إذا لم يكن هناك هدف ـ كما تصورنا هنا ـ فلا سابق معنا. . . ولا لاحق!! فلا غاية يقترب منها واحد. . فنسميه سابقاً. ويبتعد ثان. . . فندعوه لاحقاً!.

ومن هنا كان الإسلام منطقياً وعملياً فى ذات الوقت الذى يأمر بالعبادة. . ثم يفتح الأبصار قبل ذلك على الغاية منها. . ليكون هناك سابق. . . ولاحق. . أى: خيرٌ. . وشريرٌ!.

وفى الآية الكريمة التى نتأملها معان بارزة تستلفت النظر:

١ ـ نداء موجه إلى قوم مؤمنين. . ليصوموا. . . فيكملوا بذلك شوطاً بدأه من قبلهم.

٢ ـ ينبغى أن تهون مشقة هذا العمل. . . لأنه كتب على من قبلكم فلستم أول الصائمين. . ولا آخرهم.

٣ ـ قد يبدو التكليف صعباً. . . لكنه شىء يحتمل إذا كنا سنفوز بجائزة تفوق ما نلاقيه وهى. . . التقوى.

وفى سبيل تطبيق هذه المعانى فى دنيا الواقع. . . . يعينهم الحق سبحانه عليها. . . فيثير حماسهم. . . ويستنهض هممهم بوصف الإيمان الذى ارتضوه شعاراً. . وهو يتقاضاهم اليوم أن يطبقوه عملياً. أى أن وصف الإيمان حافز يدفع إلى العمل.

ولو تأملنا هذه الصورة العادية فى حياتنا لفهمنا سر هذا النداء بوصف الإيمان: فقد تجد فى الطريق رجلاً يأكل غير مبال بسنه ومركزه فتقول له: يا «رجل» لم تفعل هذا!.

أى أنك تثير فيه رجولته. . . وتوقظه من غفلة تحيط به ليعلم أن رجولته ينبغى أن تحمله على فعل الخير. . فى الوقت الذى تنأى به عن أفعال هى أقرب

إلى سلوك الصغار. . . منها إلى وقار الكبار!.

ومن أجل ذلك جاء وصف الإيمان فى الآية الكريمة. . وكأنها تناديهم:

يا مؤمنون: بحكم هذا الإيمان الذى ارتضيتموه. . . وانطلاقاً منه: صوموا. . يجب أن يصحو فى قلوبكم الآن. . ويقف على أرض نفوسكم حارساً يقظاً يطرد وساوس الجوع. واحتمال الهلاك.

ويؤكد ـ وهو من روح الله ـ أن مضاعفات هذا الإمساك عن الطعام لا تساوى شيئاً أمام ضخامة ما سنفوز به من جزاء يتمثل فى فضيلة التقوى.

ثم إن الإيمان بطبيعته عامل هام فى اتزان شخصية الإنسان.

يقصر الولاء والطاعة لتكون خالصة لله عز وجل. . بعيداً عن كل ما يحب الناس ويؤثرون. وإحساس بأن الله واحد. . رازق. . . خالق. . فالكل عبيد له. . . وكل ما فى الكون من فيض رحمته.

وإذن. . . فلا خوف من مخلوق. . . ولا فزع من قوة مهما كان مصدرها. فلم لا نعمق هذا المفهوم فى قلوبنا. . ونرسى دعائمه فى النفس فنحرمها ساعات محدودة من لذاذاتها المباحة؟ حتى يعيننا سبحانه على الانطلاق من إسارها. . . ونتخلص من جاذبيتها كقوة تخل بهذا التوازن فى كيان الإنسان.

*** فيا أيها المؤمنون:**

أكدوا هذا الإيمان. . . . وباسمه صوموا. ولا مفر لكم منه أبداً لأن الله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَام﴾[البقرة: الآية ١٨٢] إنه «كتب» أى سجل وانتهى الأمر بشأنه. . فلا مجال للتردد حيال فريضة لازمة. . . ولو حانت منكم التفاتة يسيرة إلى الوراء. . . إلى التاريخ لوجدتم أنكم لم تكونوا بدعا من الأمم فى الصوم:

فالصوم شريعة قديمة قدم الحياة نفسها. . . كتب عليكم. كما كتب على الذين من قبلكم.

وهذه المشاركة تحملكم على أن تستجيبوا طائعين. . . لأنها تجربة ناجحة خاضها قوم من قبلكم. . . يهود ونصارى.

وباسم الرسالة العالمية التى تحملونها يجب عليكم أن تتقدموا شجعاناً. . .

لتؤكدوا صدق تحملكم للأمانة التى التزم بها الإنسان.

وليس يصح فى الأذهان أن الإنسان فى طفولته الأولى يصوم... ويتحمل... فإذا بلغ رشده الإنسانى... نكص على عقبيه!.

وإذا كان سياق الآيات يدعوهم بوصف الإيمان... وإذا كان الفعل «كتب» يأخذ مكانة فى الآية الكريمة كضابط لنوازع التردد من تحمل مسؤولية الصوم.

وإذا كان أيضاً يحتكم إلى التاريخ الذى أثبت نجاح التجربة فى الماضى البعيد... فإنما فعل ذلك نظراً لخطورة الأمر... وأهمية الصوم.

وهو يسلك بذلك طريق المنطق السليم: لأن الصوم حرمان من كل مباح يملكه الإنسان... بينما يراه ماثلا بين يديه... وليس هو تحريماً لما لا يملكه فقط.

وقد يكون مفهوماً أن أمنع من الاعتداء على مال غيرى... أما فطامى عن أكل ما هو ملك لى... فهذا هو الامتحان العسير الذى تساق من أجله كل هذه الصور من الترغيب.

والصوم يحتاج إلى مزيد من الصبر أكثر من الزكاة مثلاً مع أنها شريعة مالية تتصل بشىء أثير لدى الإنسان.

ذلك بأنك فى الزكاة تعطى الفائض... وتستبقى شيئاً لمتعتك... والأمر فى الصوم جد مختلف: إنك ترقى فى سلم الكمال... لأنك تحرم نفسك من هذه المتعة التى توفرها لك شريعة الزكاة.

ومن أجل ذلك.. يستعمل القرآن الكريم أسلوب الترجى: **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾**.

وهو يشير إلى صعوبة الرحلة... ووعورة الطريق... وقلة الزاد الذى يمكن الصائم من الوصول إلى التقوى كمرفأ بعيد.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّه﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والله من فوقنا يبارك خطانا:

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُون﴾ [النحل: ١٢٨].

ولا يمكن أن تؤدى التقوى إلى مثل هذه النتائج المفيدة إلا إذا كانت فى ضمير

الإنسان طبيعة راسخة. . . تصدر عنها الأعمال. . وتحت رقابتها بلا تكلف. .
وهو ما يتوخاه الشرع من عبادة الصوم.

وفى تجلية هذا المعنى يقول الدكتور محمد سعاد جلال عند شرح قوله تعالى:
﴿تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا﴾. . . **﴿من كان تقيا﴾**:

[هذا التعبير وارد فى القرآن كثيراً:

فربما فهم منه بعض الناس أنه مفيد لمحض ثبوت وصف التقوى لصاحبه.

لكن حقيقة أدائه المستنبطة من موارد استعماله فى الكتاب هى أنه يدل على تأصيل ثبوت الوصف لصاحبه، حتى كأنه وصف جبلى له.

فهذا هو السر فى وضع ـ كان ـ قبل الصفة إذ يقول: **﴿كان تقيا﴾**.

كان مخلصاً. . . وذلك ـ فى رأينا ـ تنبيه من الشارع على أن مناط الجزاء والثناء على الاتصاف بهذه الأوصاف إنما هو العمل بحقائقها لا بظواهرها.

ورسوخ النفس فى التحقق بمعانيها دون لهج اللسان بأسمائها والتزين بألوانها].

*****

من بركات الصوم

التقوى ومستقبل الأمة

يقول الحق سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ ويقول عز وجل ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

إذا كان للأشجار أوراق تكسوها.. وإذا كان للطيور ريشها الذى يحميها.. وكان للحيوانات أيضا أوبارها وأشعارها.. فإن للإنسان لباسه اللائق به وهو التقوى.. وإذا كان لباس الجسم زينة الظاهر.. فإن لباس التقوى زينة الباطن و ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾:

خير يذكِّر المسلم بنعمة التقوى وما فيها من الجمال والكمال معا.. وما دام مستمسكا بها.. فلا خوف عليه.. مهما تلبد الجو بالغيوم.. كما أنه لا خوف على الطائر مهما ارتفع فى جو السماء.. ما دام معتمدا على جناحيه.

*** مظاهر الخيرية:**

ومظاهر الخير فى التقوى كثيرة وفيرة.. كما يفيد تنكير «خير» ثم هى بعيدة.. بعيدة. لا تنال إلا على جسر من التعب.. كما يفيد اسم الإشارة للبعيد: ذلك.. وكأنما يثير التعبير فينا ذاكرتنا.. لتستيقظ.. فتدرك من عظمة الخالق.. ما يصف أقدامها على الصراط المستقيم..

*** من بركات التقوى:**

ونتساءل ما هى أبعاد هذه الخيرية وما هى الثمرات التى تحصلها الأمة إذا استمسكت من التقوى.. **بالعروة الوثقى!**

تمدنا التقوى بروح منه سبحانه.. وتتمثل فيما يلى:

أ ـ التمكين لملكة الصبر فى قلب الإنسان..

ب ـ تزويد المسلم بحس بصير بعواقب الأمور.. يفرق به بين الحق والباطل.

جـ ـ حل المشكلة الاقتصادية والخروج بالأمة من عنق الزجاجة.

د ـ تنشيط النفس اللوامة فى كيان المسلم. . . لتقوم بدورها اللائق فى المتابعة. . والمساءلة.

*** أما عن الصبر:**

فهو بمنزلة الرأس من الجسد. .

ويعنى ذلك أنه ليس جارحة كاليد. . قد يبقى المرء حيا. . ولو ذهبت. ولكنه ركن ركين. . فإذا ذهب. . ذهب الإيمان. ومعه وجود الإنسان. وهو سيف لا ينبو. .

فواجه به المشكلات. . ولا تراوغها. . بالهروب منها؛ لأن ذلك يتعبك. . من حيث إنه ترحيل للحل المناسب وليس حسما للقضية. .

وإذ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿.. **وإن تصبروا وتتقوا**﴾.

فإنه يقول لك: لا يكفى الصبر قيمة فى القلب. . تكبت بها الآلام فى مكان قصىّ. . بل حاول التعبير عن هذا الصبر بالتقوى. . يعنى بالحركة التى تتجاوز بها المحنة الطارئة. إن هناك فى الأعماق طاقة من الألم والهم لو تركت للأيام لأضافت إليها مزيدا من الآلام ولكن: بالتقوى. . بملء الفراغ الموحش بالعمل الدؤوب. . يرتفع الإنسان فوق مستوى الواقع. . بدل أن يستغرقه ذلك الواقع. . فيتجمد. . وتزداد المشكلة تعقيدا.

*** قيمة الصبر:**

ألا إن عمود التقوى وملاكها هو: تلك القيمة التى لابد من استصحابها فى رحلة العمر على طولها. .

إن النفس لأمارة بالسوء. .

تؤرق مضجع الإنسان دائماً. . بما تحمله من أسلحة الرغبات التى تطلب الإشباع.

وقد تنتصر الإرادة فى بعض المعارك. . فتلزم النفس كلمة التقوى. . ولكنها تظل على خطر عظيم. . إذا لم تشحذها لتظل ماضية. .

وإذا لم نفطم النفس عن بعض مألوفاتها تمكينا لفضيلة الصبر لم تكن للإرادة

كلمة مسموعة فى مزدحم الرغائب المشتعلة.. وذلك ما تكفلت به شعيرة الصوم.. وبالذات فى رمضان.

رمضان: الذى لم تكن أيامه ساعات.. ولكنها قفزات إلى الكمال الأسنى.. ينتقل فيها الصائم - بالصبر - من نصر إلى نصر.. بما يملك من إرادة مكنت صاحبها من العزوف.. حتى عن الحلال.. وهو ماثل بين يديه!

*** صوم الجيوب.. وصوم القلوب:**

وطبعى أن الصيام لا يحقق هذه المكاسب.. بمجرد الإمساك عن الطعام. ذلك بأن قيمة الصبر على قدر ذلك الذى صبرت عليه.. أو صبرت عنه: فإذا صامت المعدة ساعات، فما أسهل الرحلة إذن!

أما إذا صامت القلوب.. والجوارح فما أصعب ما تحمل على تركه عندما لا يكفى لمجاهدته أن تكون صابرا.. بل لابد أن ترتفع إلى أفق أعلى لتكون مصابرا.. بل مكابرا ما تلاقى من عناء!

وصدق الشاعر إذ يقول:

إذا لم يكن فى السمع منى تصاون   وفى نظرى غض. وفى منطقى صمت

فحظى إذن من صومى الجوع والظما   وإن قلت: إنى صمت يوما فما صمت

فإذا أخذ الصوم هذه الأبعاد.. فشمل مساحة النفس كلها.. برزت الإرادة على أوفى قوتها.. ليكون لها الحكم المطلق.. والذى يجمع شمل النفس.. لتصمد فى مواجهة الأحداث.. فلا تتراخى.. ولا تتردد.. ولا تلين!

وما أكثر الذين صاموا.. وما صاموا.. لقد كان غدهم تكرارا لأمسهم.. ولم يأت بجديد.. إنهم كرروا.. بيد أنهم: ما قرروا.. ولا حرروا!

*** ملكة التمييز:**

هأنتذا ماض على طريق الخير.. متسلحا بقيمة الصبر الجميل..

ولكنك عبر الرحلة الطويلة على خطر عظيم.. إن لم تداركك رحمة من ربك.. ﴿ **فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٦٤].

ومن ثم.. فلابد من الحس البصير تكتشف به مخاطر الطريق..

إن على جانبى الطريق جنود الشيطان يرمونك بالشبهات وبالشهوات. فإذا لم يكن ذلك الحس البصير دليلك.. ضاع من قدمك الطريق..

ومصدر ذلك الحس المرهف هو: التقوى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

إن الشياطين ـ كما صور بعض العلماء: يرمونك بالصواريخ.. وعليك أن تتوقاهم: ـ

١ ـ برادار يكشف.

٢ ـ وأسلحة تضرب.. فى هجوم مضاد..

والشيطان لا يهدأ أبدا.. وما زال يحاول التحليق فى سماء حياتك بسلاح الوسوسة.. فحاول أن تكون بصيرتك.. رادارا تكشف به وسوسة عدوك قبل أن تدخل مجالك الجوى.. ومعك سلاحك الماضى.. وهو التقوى.

*** المتقون يحلون المشكلة الاقتصادية:**

يقولون: إن سبب بلاء العالم هو: أموال مخزونة.. وأيد عاطلة

ونضيف أيضا: إن مما يضاعف هذا البلاء هو الترف الذى يدخل فيه بعضنا الطعام على الطعام.. بينما يشكو الآخرون من الجوع!! ولقد حل المتقون هذه المشكلة.. لما وضعوا أقدامهم على طريق التقوى.. فمنّ الله عليهم أن كان خلاص الأمة على أيديهم. يقول سبحانه:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

ويقول تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦] وهكذا تستنزل الأمة بالتقوى بركات السماء والأرض.. جزاء وفاقا. والرخاء.. لا يأتى من فراغ.

لكن ذلك الجزاء لم يأت من فراغ.. وإنما كان نتيجة لجهاد المتقين وحكمتهم فى حل المشكلة..

إن المتقين كما قال عنهم ربهم:

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آ عمران: ١٣٤ ـ ١٣٦].

لم تقل الآية الكريمة: «الذين يملكون».. وإن كان ذلك حقهم.. ولكنها تقول: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾..

ينفقون فى سرائهم.. وضرائهم.. فالإنفاق عاطفتهم السائدة.

ثم إن عطاءهم دائم كما يشير فعل التجدد والاستمرار ﴿يُنفِقُونَ﴾.. وهم بسمتهم هذا الفارد.. غير هؤلاء الذين يعطى أحدهم رشفة.. غرفة.. ثم أكدى.. ثم منع..

وغير هذا المرابى الذى يعطى الشىء اليسير.. ليأخذ منك الكثير.. ودون هذه النماذج الرديئة يتقدم المتقون ليستنقذوا هؤلاء المحتاجين من براذن جلاديهم!

*** الشخصية المتراحبة:**

ثم إن المتقين لا يفسدون عطاءهم بالمن والأذى..

فإذا لم يلاقوا على العطاء شكرا.. أو لاقوا من بعده هجرا.. فإن لهم من جهازهم العصبى قوة تحميهم من التهور:

﴿والكاظمين الغيظ﴾

والذين لا يقفون عند حدود الكظم.. لكنهم يرتفعون إلى مستوى العفو:

وهكذا المتقى دائما: إنه يُغضى.. ولا يُغضب.. إذا وعد.. وَفى.. وإذا أوعد.. عفا..

ثم ينتقل من العفو إلى الإحسان.. تلك القمة العليا.. التى ينسى فيها الإساءة بالمرة.. ليطيع الله تعالى.. بالإحسان إلى من عصى الله فيه!

إنها الشخصية المتراحبة.. التى لا يحدها زمان.. ولا يحصرها حيز ولا مكان.

*** التائبون:**

ومن سمات المتقى أنه يملك نفسا لوامة.. قوامة دائما بوظيفتها فى التذكير:ـ

إن «الفاجر».. كالقاطرة المنطلقة بلا سائق.. وعلى غير هدى تتفجر طاقتها على جانبى الطريق.. لتصبح من بعد شظايا أو بقايا.. ذلك لأنه فقط «إنسان» خامة بشرية.. لا ضابط من الإيمان.. وبينما الفاجر كذلك كما يقول تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: ٥] فإن المتقى تملكه نفس لوامة.. وليست فقط لائمة.. إنها تتابعه وتسائله وتحاسبه دائما..

إنها تواجهه كل لحظة لتلسع وجدانه بهذه الأسئلة الكاوية: لم قلت هذه الكلمة؟

ومن أين تلك اللقمة؟ ولمن هذه الحركة!

وعندما يتورط فى فاحشة يوما.. وفى لحظة من لحظات الضعف الإنسانى سرعان ما يذكر الله تعالى.. راجيا رحمته خائفا من عذابه:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

*** الحياة فى تصور المتقى:**

والمتقى بهذا المفهوم يتصور الحياة على هذا النحو الذى صوره الفاقهون: إن الزمن: ماض معدوم.. ومستقبل متخيل موهوم.

وما أسرع أيام العمر: تتفلت ونحن لا نشعر.. وويل للظالم.

فهذا العالم لا يستطيع.. «ألكترون».. أن يخرج من مداره.. دون أن يحصل على شحنة تساوى حركته.. مع أنه جسيم أصغر ألف مليون مرة من الهباءة..

فهل فكر مغتاب.. أو سارق فى الحساب قبل أن يرتكب جريمته؟..

وقليل من عباد الله من يتفكرون.. لأن أحلام العظمة تشكل سحبا حاجبة.. فهل نفيق؟ وإذا أفقنا فهل نستطيع استحضار يوم الحساب.. وهو آت لا ريب فيه؟ ودون هؤلاء جميعا.. كان المتقى:

فقد يوسوس إليه الشيطان يوما.. فيقع فى المعصية..

ولكنه بعد أن يبذل فيها طاقاته العقلية والقلبية والعضلية .. سرعان ما يستيقظ نادما .. في محاولة لتغيير الوجهة.. فاراً إلى الله تعالى مُسلما وجهه إليه سبحانه .. ومن ثم: لا يلتفت إلى معصية بعد.. لن ينظر إلى حرام .. ولن يفكر فى منكر.. وإنما خطته اليومية أن يصلح ما أفسد .. ليصل إلى مبتغاه وهو الجنة.. الجنة التى لن يصل إليها إلا إذا كان فى الدنيا على مستواها:

فالله تعالى يقول:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وإنما يستحق المؤمن النعيم إذا كان فى دنياه كالماء .. مصدراً للحياة .. وإلا إذا صار كاللبن .. غذاء .. وكالعسل شفاء .. وكالخمر الحلال متعة للشاربين..

وهذه بعض فضائل الصوم .. التى يغذى بها المسلم .. ليكون ربانيا..

وكما جعل الخبز والتمر طاقة ينمو بها جسمك .. فإن الحطب .. والتراب لا يحقق هذا النمو .. كما قيل بحق.

وكذلك الروح: إنها بالصوم ـ تجعل منك كائنا علويا .. على صفة الملائكة لتكون جديرا بمعايشة أهل الجنة الأطهار الأبرار...

ألا وإن عملا من أعمال القلب مثل حبة الرمل .. يساوى مثل أحد من أعمال الجوارح.. وبالصوم .. تتجه حملة التطهير إلى الداخل .. حتى تكون بالخير متصفا بها .. لا واصفا لها.

*** رجل المستقبل:**

والمؤمن الذى تسلح بملكه التقوى . يصبح رجل المستقبل..

وبينما تبحث الأمم عن الرجل «السوبر مان» فلا تجده.. فإن المتقى حاضر بفضائله .. جاهز لأداء دوره فى ترقية الحياة .. بما يملك من:

صدقه مع ربه تعالى .. بعبادته.. ومع نفسه لأخذها بالزهد والعزة.. ومع غيره بالإيثار وحسن المعاشرة .. ومع المجتمع كله بالعمل له .. والتفانى فى خدمته.

وهو بحق كما قيل:

[ترى له قوة فى دين. وحزما فى لين. وإيمانا فى يقين وحرصا فى علم. وعلما فى حلم . وقصدا فى غنى وتحملا فى فاقة وخشوعا فى عبادة .. وصبرا فى شدة. وطلبا فى حلال.. ونشاطا فى هدى .. تحرجا فى روع.

قرة عينه فيما لا يزول .. وزهادته فيما لا يبقى.. الخير منه مأمول . والشر منه مأمون.

يعفو عمن ظلمه.. ويعطى من حرمه.. يصل من قطعه .. يمسى وهمه الشكر .. ويصبح وهمه الذكر... وهو فيما بين ذلك، يبغى من الله الرضا والأجر .

بعيدا فحشه. غائبا منكره . حاضرا معروفه. مقبلا خيره .. مدبرا شره .. فى الزلال وقور. والمكاره صبور . وفى الرضا شكور.

لا يحيف على من يُبغض . ولا يأثم فيما يحب.. يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه.

ولا ينابز بالألقاب . ولا يضار بالجار . ولا يشمت بالمصائب ولا يدخل فى الباطل. ولا يخرج من الحق .

بُعده عمن تباعد عنه .. زهد.. ودنوه عمن دنا منه .. لين.. ليس تباعده بكبر أو عظمة.. ولا دنوه بمكر وخدعه.. يعمل الأعمال الصالحة.. وهو على وجل.. يبيت حذرا..

ويصبح فرحا.. حذرا من الغفلة .. وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة.

إن صمت .. لم يضره صمته..

وإن ضحك لم يعل صوته... أتعب نفسه لآخرته.. وأراه الناس من نفسه فنفسه منه فى عناء .. والناس منه فى راحة.

* طوق النجاة :

والمتقى بهذا المعنى رحمة مهداة. وقوة بانية هادية.

إنه شريف . . فلا يخاف . . وكريم . . فلا يحتجب . . وعاقل فلا يكذب ومؤمن فلا يغتاب . . وزاهد فلا يحتكر . . يجوع . . ليشبع الآخرون وقد يعضه الفقر بنابه . . ولكنه يحب الأغنياء حوله ثقة منه بما عند الله تعالى . . وأين منه ذلك الغنى الشره . . الذى لا ينكر ذاته يوما ليقى أخاه ويل الجوع؟

ولا يستطيع أن يتقشف يوما واحدا من أيام إقباله ويسره.. بينما المتقى يشكل طوق النجاة فى مواجهة هذا الجشع..

وإذا كانوا يقولون: لولا المتفضلون لهلك المتجملون.. فإنا نقول: ولولا المتقون لهلك المتعففون الذين لا يسألون الناس إلحافا. ولكن المتقين بحاسة التمييز يكشفونهم ليخصوهم بالعطاء..

ألا وإن المتقى شجاع . . لأن الدنيا صغرت فى عينه . . فهان عليه كل شىء!

وبينما الجبان يواجه خطرين: أحدهما من داخله . . والثانى من خارجه . . فإن الشجاع يواجه خطرا واحدا..

فلنحاول الصعود . . بالتجرد . . والزهد..

ولا يعوقك عن صعود الجبل ارتفاعه . . فحاول أن تصعد ولكن بحذر..

إن حصاة واحدة فى حذائك. قد تمنعك من الوصول ولكن ليبقى الأمل فى الوصول رائدك . . والله وحده المسؤول أن يبلغك المأمول.

* * * * *

صامت الأكوان .. بما فيها الإنسان

فمتى تصوم المدافع؟!

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ [البقرة : ١٨٣] .

*** تمهيد:**

ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تنادون من مكان قريب . . إذن فأنتم أحياء لأنه لا ينادى إلا الحى . . !

وإذن . . فنعمة الحياة تفوض عليكم أن تتصرفوا تصرف الأحياء . . لتكونوا أهلا لهذا الشرف العظيم . . وعليكم أن تسألوا أنفسكم . . بم كنا أحياء؟

والجواب: بالإيمان . . الذى اختاره تعالى وصفا لكم . .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]

ولن يكون إيمان إلا بثمرته من الطاعة . . التى تتحول فى كيان المسلم طاقة ترفعه إلى أعلى . . حرا طليقا . . كأنما هو الغمامة البيضاء . . المحملة بالغيث . . يحيى الله به الموات . . ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]

وفى مقدمة الطاعات: الصيام . . . هذا الصيام الذى لم يتكرر ذكره فى القرآن الكريم كما تكرر غيْره من العبادات من حيث كونه سرًا بين العبد وربه . . ومقياس قربه من ساحات رضوانه تعالى . . وإذا كانت التقوى غايته . . والجنة جزاءه . . فلن تكون صائما إلا إذا صرت على مستوى أهل الجنة صفاء ونقاء . .

*** الصوم فى دستور الحياة:**

من ملامح المنهج القرآنى فى الدعوة أنه يأمر . . ثم يعين المأمور على الامتثال تلطفا به . . وشفقة عليه . .

وقد أعان سبحانه المسلم على الامتثال بما قرره من قدم فريضة الصوم التى مارسها الأقدمون وهى قدر الإنسان فى كل زمان.

بل إن الصوم «مادة» أصيلة فى دستور الأحياء.. فى مملكة النبات .. والحيوان .. قبل الإنسان ومعه: فى مملكة النبات[1].

يقول العلماء:

[لأن قدر الأشجار أن تعيش واقفة . وتموت واقفة .فليس للشجر أن يهبط إلى جحور أو كهوف أو مخابئ. وليس له أن ينكمش أو يلتف على نفسه.

وحين يأتى الخريف . مؤذنا بقرب الشتاء ـ خاصة فى الشمال ـ حيث تتجمد المياه. وتهطل الثلوج . ويلف الصقيع كل شيء . لا يجد الشجر أمامه إلا أن يتخفف حتى يكفيه القليل .. ويعبر قساوة الشتاء .. تتساقط الأوراق . حتى تتعرى الفروع . ويقف الشجر فى ثبات لا يريم. ومع عودة الربيع:ينتفض الشجر.. يدفع الحيوية إلى اللحاء والفروع . فيلين اللحاء . وتبزغ البراعم . ثم تنفجر الخضرة والألوان .. وكأن الشجر يفطر بفرح .. بعد صومه الطويل].

وإذا كان الخالق سبحانه وتعالى قد جعل لنا من الشجر الأخضر نارا.. فإنه سبحانه يجعل منه درسا مفيدا .. ووسيلة إيضاح تكشف عن سر مكنون من أسراره .. يعيننا على أمر الله تعالى.. إعانة تجعل الكون نغما منسجما .. يتحقق به الجمال أروع الجمال..

*** فى مملكة الحيوان:**

يقولون:

كان صوم الحيوانات درسا جديرا بالتأمل .. تبصرة وذكرى، وكان صومها فى أغلب الأحيان تعبيرا عن الألم. أو الحزن .

فالحصان المريض يمتنع عن الطعام. وإذا أصيبت الكلاب بكسر فى عظامها تصوم فترة قد تمتد إلى عشرين يوما. ويحملها الوفاء المغروس فى جبلتها أن تصوم حزنا على فقد صاحبها.

---

(١) راجع مجلة العربى مارس ١٩٩٣.

تشاركها العصافير. والحيوانات التى تمسك عن الطعام تعبيرا عن الأسى لما أصابها.

*** حكمة بالغة:**

ويلاحظ المربون أن هناك غاية عليا تستهدفها الكائنات من صومها . . وعلى الإنسان أن يستوعبها . . فهو أحق بها وأهلها . .

فواقع الإنسان يقول: إن الكثرة سبيل إلى الوجود . . واستمرار هذا الوجود . .

وقد يلهينا التكاثر أحيانا حتى نزور المقابر . . فخرا وبطرا . .

وقد تسكرنا متعة الطعام والشراب فنحسب ذلك سبيلا إلى القوة والاستمرار . .

مع إن الحكمة البازغة من دنيا الحيوان . . والطيور . . تؤكد للإنسان أن الحرمان أنَّ القلة . . هى السبيل إلى الوجود واستمرار هذا الوجود . . وأننا بالصوم نرقى ونسعد . . فى الوقت الذى يشقينا إدخال الطعام على الطعام!

*** سفينة الصحراء:**

يمضى الجمل ـ سفينة الصحراء ـ فى الهجير أياما وليالى . .

فهو يقطع الصحراء ـ بين الحرارة والجفاف ـ دون أن يبيت أو يتوقف.

ويمثل سنامه مخزن الشحم الذى يحترق رويدا . . فيمده على المدى الطويل بالحياة.

*** فى دنيا الأسماك:**

إذا قال الشاعر العربى:

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبـــــــدا لأول منزل

فإن «أسماك السلمُن» محكومة أيضا وبصورة فريدة . . بهذه القاعدة الفطرية:

فهى تحن أيضا إلى منابتها الأولى ويشتد بها الحنين كلما أرادت أن تضع بيضها . . وبالذات فى تلك الأماكن التى وضع آباؤها البيض فيها . .

ولكن ما حيلتها وعودتها تكلفها رحلة مضنية قد تبلغ ٦٠٠ ميلا حتى تصل إلى مصبات الأنهار بالشمال . .

ثم ماذا هى فاعلة أمام الموج الغلاب . . فى رحلة قد تمتد أشهرا يتربص بها عدوان: صياد البشر . . وصياد الطيور الجارحة؟!

ويغلبها الحنين . . فيشتد إحساسها بالحاجة إلى العودة للوطن الأم فى مصبات الأنهار . .

والحاجة كما يقولون تفتق الحيلة . . وقد هدتها الحاجة إلى أن تتخذ من الصوم ركوبا إلى تحقيق غايتها. فهى لا تجد وقتا لازدراد الطعام. . وما يترتب عليه من استرخاء تأباه طبيعة الرحلة الطويلة . .

إلى جانب ما يحقق الصوم من استهلاك ما تراكم عليها من شحوم . . فتكون أكثر رشاقة وحركة. فتغالى التيار بكفاءة . . وتناور الصيادين باقتدار. ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤].

ومن الحيوانات والحشرات ما لا يطيق الصوم فيهاجر إلى حيث الغذاء وافرا. . ومنها من يدخر من يومه لغده. .

ومنها من يؤثر النوم فصل الشتاء كله . . حتى إذا جاء الربيع خرجت من جحورها محكومة بالفطرة التى لا تخطئ. .

وكأنما تحكى قصة الإنسان . . على تعدد مناهجه ووسائله . وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ولم يكن الصيام مجرد إمساك عن الطعام والشراب . . لكنه كان دواء وشفاء:

أ ـ كان «أبو قراط» طبيب اليونان يصف الصوم فى أحرج لحظات المرض ثم يقول:

«كل إنسان منافى داخله طبيب. وما علينا إلا أن نساعده، حتى يؤدى عمله».

ب ـ وقد وعى المصريون القدماء هذه الحكمة . . فكانوا يصومون ثلاثة أيام

من كل شهر ثم تخلصوا بهذا الصوم من كثير من الأمراض المتوطنة.

مما حدا بالمؤرخ «هيرودوت» أن يعزو سلامة أبدانهم إلى هذا الصوم.

جـ ـ وكان «أبيقور» يصوم أربعين يوما لشحذ قواه العقلية .. وتنشيط طاقة الإبداع فيه.

د ـ أما سقراط فكان يصوم عشرة أيام كلما أراد أن يحسم قضية خطيرة تعترضه.

*** إن الطعام أثير لدى الإنسان:**

فإذا قعدت على الطعام وأنت تشتهيه .. ثم أمسكت عنه وأنت تشتهيه.. كان ذلك هو الدواء الذى لا داء معه.. يشفى جسمك من الأمراض.. ويقى مداركك من الخمول..

فإذا الإنسان على أوفى معانى الصحة النفسية والجسمية بهذا التدريب..

بسلاح الإرادة التى يصير بها سيدا.

وهكذا .. وبالإرداة الصلبة .. يأخذنا الصوم من أنفسنا الأمارة التى تمرغنا فى التراب .. لنحلق فى الجواء العالية .. ثم نعود إليها أخيرا بطرائف الحكمة.

ألا وإن الحياة كما يقول العقاد: بحر هائل فى أحشائه من الدرر واللآلئ آلاف وآلاف فلماذا لا نطرح شباكنا .. بل لماذا بالإرادة لا نغوص فى أعماقه لنستخرج ما قدر لنا منها:

ولن يستطيع الفوز بها إلا طويل النَّفس! وما دمنا أحياء.. فلابد أن ننسجم مع قانون الحياة.. الحياة المتقلبة: بين صعود وهبوط . وصحة ومرض.. وفقر وغنى.. لابد أن نكون فى وضع الاستعداد دائما..

يقول العقاد: «الصيام بكل أنواعه وفى كل درجة من درجاته وسيلة من وسائل لا يستغنى عنه أحد فى مزاولات الحياة ولابد لنا منه فى كثير من الأحيان علواً على الجماد المسخر واستقلالا عن تيار الضرورات.

الصيام بجميع درجاته وأنواعه هو أحد وسائل النفس العديدة التى تثوب إلى وجودها. وتستقل بها عما حولها، وأنه إذا ظهر فى بعض جوانبه بمظهر إنكار

الذات فهو فى أعمق أعماقه تقرير للذات وإثبات لقيامها بنفسها واستغنائها عما هو خارج عنها، ومن أثبت إرادته، وقرر عزيمته فهو فى الواقع يقرر نفسه ولا ينفيها أو ينكرها».

*** متى تصوم المدافع:**

وهكذا صام النبات . . والحيوان . . والإنسان. . فمتى تصوم المدافع؟!!

إن كثيراً من الحكومات اليوم تنفق خمس ميزانياتها على الصحة والتعليم والعمران. . ثم ترصد أكثر من نصف ميزانياتها على الأسلحة الفتاكة . . ووسائل الدمار الشامل.

وإذا جعل الله تعالى بأس الكافرين بينهم شديدا . . فذاق بعضهم بأس بعض. . فكيف بالمؤمنين وقد جعلهم الله تعالى:

﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾

لقد صام الكون . . من حولنا أيها المسلمون المتناحرون. . وصامت المعدة فى كياننا. فمتى تصوم المدافع التى تأكل الأخضر واليابس. .

فليكن رمضان فرحة للجلوس حول مائدة المفاوضات . . ولنمسك على الأبرياء حياتهم . . فلا نضيعها. . لنكن كرماء . . فى شهر كريم!

* * * * *

صوم التطوع وتربية الأمة

*** الصوم أقدم من الأديان:**

منذ خمسة وعشرين قرنا من الزمان ذهب «يونس» عليه السلام إلى نينوى ولما جاءها أنذر الشعب والملك العذاب إذا هم لم يؤمنوا بالله تعالى . . فخاف الملك والرعية.

جاء فى سفر يونان من العهد القديم:

[إن أهل نينوى آمنوا بالله . وتنادوا إلى الصوم . ولبسوا المسوح الغلاظ . وأمر الملك: لا تذق الناس. ولا البهائم. ولا البقر ولا الغنم شيئا ولا ترع. ولا تشرب ماء.

وليتغط الناس والبهائم بالمسوح. ويرجعوا عن الظلم].

*** مغزى صوم التطوع:**

بالتقوى وهى ثمرة الصيام ـ تتخلق ملكة التمييز والكشف ترى بها الحق حقا. . والباطل باطلا . . فنجو من ظلام التمزق والتعتيم الذى يعانيه غيرنا. . والذى يراد فرضه علينا . . حتى نكون نحن . . وهم فى العماية سواء.

وإذا كان صوم رمضان قد حسم المعركة بيننا وبين الشيطان والشهوات . فأعاننا على الانتصار فيها . . فإن ذلك لا يُخفى حقيقة أن الشيطان ما زال موجودا. . قاعدا لنا بكل سبيل. والنفس ما تزال كذلك أمارة بالسوء.

ويجىء صيام التطوع استكمالا لمسيرة الطهر . . وليظل استِمْتَاعُنا بثمرات النصر قائما دائما.

ويعنى ذلك: أن صيام التطوع يضع النفس دائما فى موقع تتمكن فيه من النصر. والتصدى لكل إغراء من الشيطان، وإغواء من النفس.

*** ضوابط صيام التطوع:**

كان للشارع الحكيم ضوابطه التى تزامل الصائم المتطوع لتبقى له حيويته بلا إفراط أو تفريط. وكان له أيضا تحديده المرن لأيام التطوع. . حتى لا يغالى البعض

بصيام الدهر . . أو يغفل الآخرون بالتفريط . .

ومن هذه الضوابط:

١ ـ ألا يكون على حساب قيمة إنسانية . . من أجل ذلك حَرَّم صيام يوم العيد . . حتى لا نعتدى على قيمة الشكر فى هذا اليوم . .

هذه القيمة التى يعنى إظهارُها يوم العيد: اتساع دائرة الأُخوَّة بالعطاء لتصبح الأوطان وطنا . . ولتصير القرية كلها دارا . .

٢ ـ ولابد ألا يترتب على الصيام ضياع حق الغير . . كالزوج مثلا: فلا تصوم الزوجة وزوجها حاضر إلا بإذنه.

٣ ـ أن تظل مصادر الطاقة مستعدة للتحرك . . فلا نصوم الدهر . . ولا نواصل.

وفى هذا الإطار صام الصحابة رضوان الله عليهم . . ومع وجود بعض المحاولات الطامحة الجامحة إلى التشدد إلا أن الوحى الأعلى كان يقطع عليها الطريق لتظل سائرة على سواء الصراط.

*** صوم الصحابة:**

صام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم تحت إشراف الوحى الأعلى فرضا ونفلا. ولقد كان للأمة فى صيامهم عبر ينبغى أن تتملاها . . لتسير على دربهم وتنسج على منوالهم:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما. أن النبى ﷺ قال له:

«بلغنى أنك تصوم النهار وتقوم الليل، فلا تفعل، فإن لجسدك عليك حقا، ولعينك عليك حقا. ولزوجك عليك حقا صم وأفطر .. صم من كل شهر ثلاثة أيام. فذلك صوم الدهر».

قلت يا رسول الله: إن لى قوة. قال: **«فصم صوم داود عليه السلام: صم يوما وأفطر يومًا»** فكان يقول: يا ليتنى أخذت بالرخصة.

وتَذْكر الروايات أن عبد الله بن عمرو قرر يوما أن يستمر صائما فقال: لأقومن الليل. ولأصومن النهار ما عشت . . وبدأ فعلا تنفيذ الخطة.

ويبدو أن إخوانه من الصحابة وجدوا أنفسهم أمام ظاهرة غير عادية . . ما عرفوها من رسول الله ﷺ . . ،وكان من الوفاء لدينهم وزعيمهم وأخيهم أن يرفعوا القضية إلى إمامهم ﷺ . .

وما هى القضية هنا؟

القضية ليست قضية اختلاس تورط فيها زميلهم . . كما وأنها ليست وشاية يوغرون بها صدر المدير . . ليخلو لهم وجهه بعد تنحية الزميل المحظوظ!

إنها قضية إفراط فى باب الطهر . . وليست تفريطا يخل بواجبات الوظيفة . .

لقد كانت البيئة نظيفة . . عفيفة . . فلم يكن حينئذ وشاة لا وشاية . . والمسألة هى: أن فتى مسلما أحسّ ببدنه يتفجر عافية . . والإرادة الصلبة تمسك بزمام نفسه طول عمره . . ليظل أبد الدهر قائما على قاعدة الصبر.

ومن وراء ذلك كله: رغبة عارمة فى الصوم تعبيرا عن هذا الرصيد المذخور من عافيته.

ولكن ما هى النتيجة المتوقعة؟

سوف تتسرب العافية مع الأيام . . وتتناقص القدرة . ويهن العظم. ثم تتعطل مرافق الدولة وتتوقف مسيرة الدعوة . . بعد أن انتبذ الشباب مكانا قصيا . . ولم يبق إلا أن تستورد الدولة من الخارج من يخيط لها الثوب. . ويُعبِّد لها الطريق . . ويصنع لها الآلة . . ويزرع لها القمح . .

ولن تستفيد الأمة حينئذ من شاب أحس بالمتعة . . فى غمرة العبادة الموصولة. . لأن واجبه الأكبر ليس فقط أن يستمتع. . وإنما أن يمتع غيره!

هذا على المستوى الاجتماعى . .

أما أثر ذلك على نفسه فهو إضعاف للبدن . . وإحراج للزوجة . . وهذا ما نبه إليه رسول الله ﷺ . . آمرا له أن يصوم يوما ويفطر يوما على نحو يحتفظ له بحقه فى العبادة . . بحيث لا يُسقط من حسابه حق المجتمع . . أو حق الأسرة . .

إن حياته حينئذ ستكون كرا وفرا . . يتيح له فرصة «الحضور» فى وجدان أمته. . إلى جانب ما يحققه من رغبته. .

وتأملى قوله ﷺ: **«ولعينك عليك حقا»** أو حظا»

لتدرك على الفور أثر الجوع الموصول فى إضعاف الرؤية الكاشفة . . ولتتصور أمة يتربص بها أعداؤها . . ثم تبحث عن نسور الجو فلا تجد مِنْ بنيها إلا عمى الألوان . . فى شباب لا تنهض بهم الأوطان.

ولقد أدرك عبد الله بن عمرو نفسه ذلك عندما قال معترفا بالحق بعدما تبين: يا ليتنى أخذت بالرخصة

لقد أسرف على نفسه . . ومن فرط الاندماج فى الدور لم يشعر بالعلة تسرى فى دمه . . ثم أفاق على صيحته الراشدة ﷺ . .وما أحوج بعض المتشددين اليوم إلى قبول النصيحة. . إبقاء على طاقة . . ندّخرها ليوم عظيم.

*** الأسوة الحسنة:**

إن هناك ما هو أفضل من الخير وهو: النفس التى فعلته. والنية التى بعثته.

وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم وهم يستجيبون لله تعالى ولرسوله ﷺ إذا دعاهم لما يحييهم.

ولقد كانوا بصفة عامة أحرص ما يكونون على الاهتداء به ﷺ فكانوا يسألون. . حرصا منهم على الاقتداء. .

وكان سؤالهم عن أفضل الأعمال . . فلما أجيبوا بأنها الصوم الذى أعد الله له أحسن الثواب تنافسوا فيه. . .

أ ـ عن عمار بن ياسر رضى الله عنه قال:

أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة. فسرنا فى يوم شديد الحر. فنزلنا فى بعض الطريق. فانطلق رجل منا. فدخل تحت شجر. فإذا أصحابه يلوذون به وهو مضطجع كهيئة الوجع.

فلما رآهم رسول الله ﷺ. قال: **«ما بال صاحبكم؟»** قالوا: صائم. فقال رسول الله ﷺ:

«ليس من البر أن تصوموا فى السفر، عليكم بالرخصة، التى رخص الله لكم فاقبلوها»[1].

(١) رواه الطبرانى الكبير بإسناد حسن عن الترغيب جـ ٢/ ٩٠، ٩١ .

وهكذا يتفقد القائد رجاله تفقدًا يدعم الثقة الجامعة بين القيادة والجند إنه يتعهد هؤلاء الرجال ليظلوا على المستوى المطلوب . . جندا للحق يغيظ الله بهم الكفار .

فلما علم بما ألزم به الجندى نفسه من إعنات ابتدعه . . وما كتبه الله تعالى عليه . أذّن فى الصحابة بما يجب أن يكون :

أولاً: ليس من البر الصيام فى السفر .

ثانيًا: إن السفر نفسه جزء من العبادة لما فيه من مشقة قدرها الحق تعالى قدرها حين رخص بقصر الصلاة فيه .

ثالثًا: فإذا أضيف أن السفر كان إلى غزوة . . يعود الجندى بعدها مرهقا . . كان الصوم ثقلا على أثقاله .

رابعًا: إن رخصة الفطر ممنوحة للمسافر والمجاهد . . هدية من الله تعالى . . ومن الأدب معه سبحانه أن يقبلها ولا يردها .

وإذن فالبر ليس فى الصيام . . وإنما البر فى الفطر تخفيفا عن الجسد الراغب فى الراحة . . ولنحميه من نكسة صحية قد توهن العظم فلا يصلح الجندى بعدها لقتال .

خامسًا: وإذا تصورنا أن اليوم كان حارا . . بل وكان حره شديدًا تبين لنا ما فى التوجيه النبوى الكريم من حكمة تمسك بالطاقة حتى لا تصير هباء . . وحتى لا نحقق للأعداء بالجسم الوهنان أملهم فى التحرش بنا .

سادسًا: ﴿**ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم**..﴾ وليس كالجهاد شكرٌ وإيمان . . وإذا لمسنا فى الخطاب السابق معنى الملاينة . . فربما كانت القضية وسطا ولكنها توشك أن تدخل فى دائرة التشدد . .

إنه ﷺ يؤثر اللهجة الشديدة فى علاج الغلو إذا اقتضى الأمرُ ذلك . . وكان الصائم على حال يخشى عليه من الانهيار .

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: سار رسول الله ﷺ، فنزل بأصحابه، وإذا ناسٌ قد جعلوا عرشا على صاحبهم وهو صائم. فمر به رسول الله ﷺ فقال: «**ما شأن صاحبكم.. أوجع؟**» قالوا: لا يا رسول الله. ولكنه صائم

وذلك فى يوم حرور فقال رسول الله ﷺ: «**لا بر أن يصام فى سفر**».

إن النبرة هنا قصيرة فهى قاطعة حاسمة تعبر عن قرار لا يحتمل المساومة.. من حيث كان حال الرجل أدخل فى دائرة الغلو .. وبالتالى فهو أقرب إلى الهلاك.

ويبلغ التحذير منتهاه إذا أخذ شكل المخالفة - غير المقصودة - عن أمره ﷺ.

عن جابر رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة فى رمضان.. حتى بلغ كُراع الغَميم - موضع قريبٌ من عسفان - فصام . وصام الناس..ثم دعا بقَدحَ من ماء فرفعه حتى نظر الناس حتى شرب. فقيل له إن بعض الناس قد صام. فقال: «**أولئك العصاة. أولئك العصاة**».

إنها القيادة العظيمة التى ترحم حين ترحم .. وتعنف حين تعنف صادرة فى رحمتها وتعنيفها عن رغبة فى الحفاظ على الجندى المسلم ليظل مستعدا للنزال أبدا.

* * * * *

الصائمون هم المتحضرون!!

أرأيت إلى هذه النبتة الخضراء . . التى تباهى بخضرتها زرقة السماء؟

إنها سوف تندثر لو بقيت فى غابة من الحشائش الطفيلية . . التى تمتص منها رحيق الحياة.

وكذلك العبادة: إنها نزهة الروح . . وريحانة القلب . . ولو لم تكن النفس مهيأة للانسجام معها. . وتذوق حلاوتها . . واستشعار أهدافها . . لو لم تكن كذلك . . لصارت حركات آلية. . لا تحقق الحكمة منها. .

وفى خيالى صورة ذلك العابد الزاهد . . والذى نذر أن يصوم . . وأن يظل فى الشمس . . على أن يكون واقفا . . لا يقعد ولا يستظل. بل ولا يتكلم!!

ولما علم ﷺ بحاله قال لأصحابه:

«مروه فليتكلم .. وليستظل .. وليقعد ، وليتم صيامه»

إن عابدا فى هذا الجو المرهق . . لن يفيد من الصوم . . ويتدخل الرحمة المهداة ﷺ. . لإنقاذ الرجل من نفسه. . صادرا من قاعدة قرآنية مشتقة من قوله عز وجل: ﴿**ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم**﴾.

وهى نفسها القاعدة التى انطلق منها المربون فقالوا:

إذا كان النجاح هدفا لنا . . فينبغى ألا نبالغ فى التضحيات الجسيمة لنصل إليه. . لأن هذه الهرولة . . وهذا العناء فوق الطاقة وإن وصل بك إلى النجاح يوما . . فسوف تصل إليه . . وقد فقدت القدرة على تذوق هذا النجاح!!

وعلينا ـ وقد قدم رمضان ـ أن نستشعر هذا المعنى فنستعد . . بإعداد النفوس له:

فإنه إذا جاء رمضان. . فأوله رحمة . . وأوسطة مغفرة. . واخره عتق من النار. .

والعرض كما ترى . . يغرى بالتسابق إليه . والمسلم اليوم مطالب أن يصوم

صوما يكافئ هذا العطاء الجزيل الجليل . .

وإذن . . فعلى المسلم أن يغير بالصوم خطته اليومية . . والتى كان عليها قبل رمضان . . ليعمق إحساسه بنعمة الرحمة . . والمغفرة والفرار إلى الله تعالى . . من نار تلظى . .

وهكذا كان سلفنا الصالح فيما أشار إليه الشاعر القائل:

إن البطون التى التظّت بشهوتها قد اشترت بالعلاقيدا من التخم

أما البطون التى صامت لخالقها فدوّخت عاهل الرومان والعجم

وأنعم برجال بعدت المسافة بين عقولهم ومعداتهم . . فمشوا بين الناس . . بهامات شامخة . ورءوس مرفوعة.

وليس من الاستعداد أن نتفنّن ـ وقبيل رمضان فى تخزين ما لذ وطاب . . من الطعام والشراب . . لأن ذلك مانع من تذوق حلاوة الصوم . .

ومن قبيل ذلك: النهى عن السرعة وأنت متجه إلى المسجد للصلاة؛ حتى لا ترهق نفسك . . وتتلاحق أنفاسك . . فإذا أخذت مكانك فى الصف وأنت كذلك فإنك إلى أن تهدأ من آثار التسرع وتستريح تكون وقد فاتت صلاتك كلها . . أو جلها . . وقد أذهلك الإرهاق عن معانيها.

وفى التمكين لهذا المبدأ . . مبدأ تهيئة النفس للعبادة . . نذكر ما قالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

فلقد سئلت رضى الله عنها. عن صلاته ﷺ . . صلاة التراويح .

قالت: كان يصلى أربعا: لا تسل عن حسنهن وطولهن.

وإذن: فلا يهم عدد الركعات . . وإذا كان الكم مهما . . فأهم منه الكيف . . أن تكون مستكملة أركانها . .

أعنى : لتصير بهذا الكمال فى كيان المصلى واعظا مقيما يأمر وينهى.

﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

ومما يشير إلى هذا: التعبير عن الصلاة بضمير العاقل فى «حسنهن . .

وطولهن».

وإلا .. فكثرة الركعات .. مع الذهول. لا تنشئ فى النفس هذا المفتش المقيم!!

*** الاستعداد للصوم:**

ومن رحمة الله تعالى بنا أنه سبحانه وهو يفرض عليها الصوم.. يتلطف بنا.. حين يجىء أمره تعالى بالصوم معينا لنا على أن نصوم كما يريد تعالى:

١ ـ فنحن منادون .. ومن قبله سبحانه وتعالى..

وهذا شرف عظيم أن ينادينا ربنا سبحانه.

٢ ـ ثم إن الصوم أيام .. معدودات .. ميسرات.

٣ ـ ولقد تكفل تعالى بتقييد الشياطين.

٤ ـ فلنصفد نحن فى داخلنا شياطين الحسد.. والجفاء .. والكبر .. فى هذه الظروف المواتية..

ومع إطلالة رمضان .. لا نبالغ كهذا الذى أسرف على نفسه فصام .. قائما.. وفى الهاجرة .. وإنما علينا فى شهر الصوم: أن «نستظل» .. بظل الحب. وأن «نقعد» عن كل تآمر بالآخرين.. وأن نتكلم .. ولكن بالكلم الطيب..

فإذا لم نفعل .. فليس لنا من صيامنا إلا الجوع والعطش..

إننا مأمورون أن نقرأ القرآن .. ما ائتلفت عليه قلوبنا..

فليكن شهر القرآن فى حياتنا كذلك: نصومه .. راغبين .. مشوقين .. متحدين..

*****

رمضان فى حياة الصالحين

كان أساس الاهتمام برمضان حديث: «**اللهم بلغنا شعبان ورمضان**».

ويعنى ذلك الاستعداد للصوم حتى قبل شهر شعبان .. حتى إذا دخلت النفس فى مجاله .. كانت على أوفى درجات الاستعداد .. بعد هذا الزمن الطويل فى تصفيتها من أكدارها ..

وبينما اللاهون الساهون .. يستعدون بالحلوى .. والمرفهات .. كان هناك استعداد الطيبين للرحلة الشاقة ..

فإذا جاء رمضان فى الشتاء كان هو الغنيمة الباردة .. والتى ينالونها بلا تعب يذكر. فليل الشتاء الطويل يحيونه بالقيام .. ثم هو يتَّسِع أيضا للراحة والسكون .. ثم إن نهاره قصير .. فلا يشق الصيام.

ولقد كانت لهؤلاء الصالحين غاراتهم الهاجمة على المترفين من أهل التخمة قالوا: البطنة تذهب الفطنة.

وقال مسلمة بن عبد الملك لملك الروم: ما تعدون الأحمق فيكم؟

قال: الذى يملأ بطنه من كل ما وجد.

وحضر أبو بكر سفرة معاوية ومعه ولده عبد الرحمن بن أبى بكر فقال له معاوية ما فعل ابنك التلقامة[1]؟ قال اعتل. قال: مثله لا يعدم العلة .

ورأى أبو الأسود الدؤلى رجلا يلقم لقما منكرا، فقال: كيف اسمك؟

قال: لقمان .. قال: صدق الذى سماك.

وقيل لأبقراط الحكيم: مالك تقل الأكل جدًا؟ فقال: إنى آكل لأحيا وغيرى يحيا ليأكل ..

---

(١) التلقامة : العظيم اللقم .

ودعا عبد الملك بن مروان رجلاً إلى الغداء فقال: ما فيّ فضل يا أمير المؤمنين.

قال: لا خير فى الرجل يأكل حتى لا يكون فيه فضل!

ولقد ذاعت سخريتهم من هذا النهم الشره الأكول فقالوا إزراء به:

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت وبين أخرى تليها قيدأ ظفور!!

*** الطعام على شرط الإسلام:**

ولقد كان للطعام فى حياتهم مواصفاته المنسجمة مع روح الإسلام الزاكية.. والمنطلقة من قوله تعالى: ﴿فلينظر أيها أزكى طعامًا﴾:

فالطعام فى نظر الطيبين الصالحين:

١ ـ يجب أن يكون زاكيا.. ناميا.. مباركا.. كالبُرّ. والأرز.

٢ ـ وأن يكون زكيا: أى طاهرا.. حلالا..

٣ ـ ومن حله: إنفاقه فى موضعه:

أ ـ شربة لظامئ.

ب ـ لقمة لجوعان.

ألا ما أجمل اللقمة الحلال.. وإن كانت بسيطة.. ما أجملها حين تأكلها من عمل يدك.. لا يمن بها عليك أحد.. وليس لله فيها عليك تبعة!

ولا يعنى ذلك أن الإسلام يفرض عليك التقشف فرضا.. وإنما الأمر على ما قال العارفون:

[لا أقول لكم: اتر كوا الدنيا.. وإنما أقول لكم: اتركوا الذنوب!

ذلك أن ترك الدنيا: فضيلة.. وترك الذنوب: فريضة.. والفريضة مقدمة على الفضيلة].

وإنه لفرق هائل.. يحذر المؤمن العاقل من أن يقترب به عمله من دائرة النفاق.. معزولا عن المؤمنين من الرفاق.. هذا الفرق الذى صرح به واحد من

الصالحين تخويفا . . وتحريضا فقال:

الفرق بين المؤمن والمنافق كبير وشاسع:

فالمؤمن مشغول بالفكر والصبر . . والمنافق مشغول بالحرص والأمل.

والمؤمن آيس من كل أحد . . إلا من الله . . والمنافق راج كل أحد إلا الله . .

والمؤمن يقدم ماله دون دينه . . والمنافق يقدم دينه دون ماله . .

والمؤمن يحسن . . ويبكى . . والمنافق يسىء . . ويضحك . .

والمؤمن يحب الوحدة والخلاء . . والمنافق يحب الخلطة والملا . .

والمؤمن يزرع ويخشى الفساد . . والمنافق يقلع . . ويرجو الحصاد . .

والمؤمن يأمر وينهى للسياسة . . فيصلح . . والمنافق يأمر وينهى للرياسة . . فيفسد.

*** مدرسة الصالحين:**

ولم يكن هذا الاتجاه الإسلامى الراغب فى التثقيف . . وتصفية الروح . . لم يكن محاولات فردية . . وإنما كان مدرسة: فيها طلاب يسألون . . وأساتذة يوجهون.

قال رجل ليحيى بن أكثم: أصلح الله القاضى . . كم آكُل؟

قال: فوق الجوع . . ودون الشبع . .

قال: فكم أضحك؟

قال: حتى يسفر وجهك. ولا يعلو صوتك.

فقال: كم أبكى؟

قال: لا تملّ من البكاء من خشية الله.

فقال: وكم أخفى من عملى؟

قال: ما استطعت.

فقال: وكم أجهر منه.

فقال: بمقدار ما يُقتدى بك .. ويؤمن عليك الرياء!

*** الصائمون هم المتحضرون:**

نزل القرآن فى شهر رمضان فكان نزوله هدى للناس جميعا:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[البقرة : ١٨٥].

ولقد كان من شكر هذه النعمة الجليلة أن نصوم.. ليكون صومنا سبيلا إلى التحلى بملكة التقوى.. وبالتقوى يصير للمسلم حس بصير بعواقب الأمور..

وإن قلب الصائم .. المتقى مرآة صقلية.. فلا يأتيه الشيطان من ناحية إلا أبصره.. بينما الفاسقون مسودة قلوبهم .. فتهجم عليهم الشياطين فلا يبصرونهم.

وإذن .. فالصائمون .. فالمتقون هم وحدهم المهتدون.. فهم المفلحون .. المنتفعون بهداية القرآن.

باختصار: إنهم دون غيرهم.. هم المتحضرون لماذا؟

لأن المتقى يؤمن بالقرآن .. ويؤمن كذلك بالغيب.

أى أنه ـ كما قال علماؤنا: لا يقف عند المحسوسات.. بمعنى أن الدنيا تنتهى عند حدود إبصاره.. وهكذا الحيوان.. وهكذا الماديون.

لكن المتقين يتجاوزون المحسوسات .. إلى الغيب يؤمنون به .. فكانوا بهذا الإيمان طليعة الركب البشرى المنغمس فى لذاته ... وشهواته.

إننا لم ندرك من العالم المادى إلا ٣٪ فقط ويبقى ٩٧٪ لا ندركه..

فكيف بالغيب... لقد كان المتقون أرحب صدرا. وأوسع مدى .. ومن ثم أعمق إيمانا .. لأنهم يؤمنون بالغيب.

وربما جاز لنا أن نشير إلى علة بشرية اجتماعية: فبعض الناس فى علاقاتهم بالآخرين .. لا يؤمنون بالغيب. أى بما غاب عن أعينهم..

ومن ثمَّ يحكمون على الناس على أساس ما يشاهدونه منهم فقط . .

مع أن أعماق الإنسان بحر متلاطم من الأسرار والمفروض أن نحاول الاقتراب منه . . لندرك بعض أسراره حتى لا نظلم الناس بالحكم على ظواهرهم . . بينما هناك فى أخلاقهم «غيب» هو أساس الحكم عليهم . .

ولكن . . عميت البصائر . . وإن رأت الأبصار!!

إن الفرق هائل بين بصر المادى . . وبصيرة المتقى .

أرأيت إلى المادى : كيف ينظر إلى النيل كبطل من أبطال الأساطير . . يحكى التاريخ . .

وكيف يراه المتقى دليلا على الأخذ بالأسباب . . لتصبح الأرض مخضرة؟

*** والمتقون هم الفائزون:**

ذلكم فى الدنيا . . أما فى الآخرة . . فكما كانوا فى حياتهم صابرين . . فلهم كذلك جزاء الصابرين . . بغير حساب . . لقد أظمأوا نهارهم . . وقاموا ليلهم . .

فحرمهم الظمأ . . والقيام . . من لذة المنام . . فكان من رحمته تعالى : أن رصد لهم جزاء ما قدموا . .

قال لى طالب العلم : يقول تعالى : ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾

قلت له : لأن عطاء الصابر أيضا بغير حساب

فالجزاء من جنس العمل . . ولكل درجات مما عملوا . .

إن الصبر . . فى قلب الصابر جم العطاء . . ينم عن شخصية متراحبة . . تواكب الأحداث بما ضم عليه قلبها من صبر مبارك الثمرات . . وفى كل موقع .

فالصبر فى ساحات النضال شجاعة . وفى مواجهة المعاندين للدعوة . . سماحة . وعند هجمة الشهوة عفة . . وعند الغضب . . عفو . . وأمام بريق المال ورع . . وفى زحمة مغريات الدنيا . . زهد . .

لقد كان عطاء الصابرين وفيرا . . فكان جزاؤهم أيضا وفيرا .

*** نحن : التقدميون!**

يقول تعالى فى سورة المدثر : **﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾** .

وإذن : فنحن المسلمين . . نحن التقدميون . .

التقدميون . . بالعبادة . . وهم المتأخرون . . بالفسق والإلحاد . .

ومهما حاولت أجهزة التضليل أن تعكس الآية لتجعل منا رجعيين . فإن الواقع الشاهد . . بأنهم هم الرجعيون . . التقدميون . . ولكن إلى الخلف!!

* * * * *

من دروس رمضان

﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾

الذين يحسنون قراءة الواقع . . يحسنون فى نفس الوقت تفسير هذه الآية الكريمة . . وبخاصة ما يترتب على الإسراف من إجحاف بحق النعمة. يقولون:

[من أجل عدة ثوان تغسل فيها يديك. . فإنك تفتح الصنبور دقائق . . وفيما يتعلق بالطعام والشراب:

فلا توجد مائدة مصرية كبيرة أو صغيرة، لا يتبقى منها طعام على عكس المائدة الأوربية والأمريكية فالناس يضعون أمامهم ما سوف يأكلونه بالضبط فلا يتبقى منه شيء هل هذا بخل؟ إنه تدبير . . اقتصاد . . حساب . .لقد عرفوا علوم الحساب الإلكترونية ووضعوها فى جيوبهم ومن عادات المصريين ما نفعله جميعا عندما ندعو إلى وليمة فى بيوتنا، إن الطعام الذى تقدمه يكفى لضعف المدعوين، فإذا دعونا خمسة قدمنا طعاما يكفى لعشرين، وهذا سفه وإسراف. ولكنه مظهر سخيف من مظاهر الكرم أو الثراء. فماذا يحدث عادة؟ يتبقى أكثر الطعام ويفسد معظمه.

ثم إننا بعد ذلك نصف أنفسنا بالعبط وضيوفنا أيضا!

وسوف يجىء شهر رمضان المبارك كما جاء قبل ذلك دليلاً على أنه ليس شهرا للصيام، وإنما هو شهر للتخمة والاستدانة والارتباك المعوى؛ لأننا نجمع بين الساخن والبارد والحلو والحادق والشوربة والكنافة والنوم والسهر . . وليس ذلك من الدين فى شىء لأنه ليس من العدل ولا من الاقتصاد ولا من مبادئ علم الحساب!] .

ونذكر هنا موقفا للفيلسوف سقراط:

فقد دعا جماعة من أصدقائه إلى الطعام . فقال أحدهم بعد أن لاحظ بساطة الطعام . . وبساطة المائدة التى كانت قليلة الألوان مما يتنافس فيه الناس.

قال لسقراط: كان الأجدر أن تهتم بضيوفك!

فقال: إن كان ضيوفى عقلاء. فعلى المائدة ما يكفيهم!

وإن لم يكونوا عقلاء.. فعلى المائدة أكثر مما يستحقون!

*** مفارقات عجيبة:**

نشرت الصحف أخيراً: إن الإيرانيين يرمون خبزا يساوى ٥٠٠ مليون من الدولارات.. سنويا..

وفى هذا الوقت بالذات نقرأ ما تحت هذا العنوان: الشعب الأمريكى يعانى من الجوع.

«أعلنت منظمة لحقوق الإنسان أن مئات الآلاف من كبار السن الأمريكيين يعانون من الجوع .. وأن ملايين غيرهم فى سبيلهم إلى المعاناة.

وقالت المنظمة فى التماس إلى الكونجرس الأمريكى:

إن خمس الأمريكيين يتلقون حاليا مساعدات من برامج التغذية الفيدرالى فى صورة كوبونات بوجبات غذائية.

وقالت مديرة المنظمة: أن أعدادا أخرى تقدر بمئات الآلاف لا تحصل على هذه المساعدات.

وقالت: إنه لمن المخزى أن تشهد بلادنا الغنية مأساة كبار السن الذين ينبشون فى صناديق القمامة بحثا عن وجبة غذاء!؟!

*** العلماء يحذرون:**

وفرارا من هذا المصير المؤلم يحذر علماؤنا من هذا المصير الرهيب.. فى الوقت الذى تحفل فيه الموائد فى الحفلات بما لذ وطاب...

يقول الكاتب أنيس منصور:

[سمعت مواطنة مصرية تشتكى لرجل الأعمال كامل أبو على صاحب القرية السويسرية تقول له: الأكل هنا كثير. ويوجع البطن.

استوضحها قالت: أن الأكل الموجود فى البوفيه المفتوح كثير جدا وأنها لا تستطيع أن تأكل كل هذه الأصناف!

هذه هى المشكلة: فهى تصورت أن كل هذه الأطعمة: الخضروات واللحوم والأسماك و «السلطات» يجب أن تذوقها كلها. ملعقة من هنا و(هبرة) من هناك. مع أنه بالعقل المفروض أن تختار ما يعجبها من كل ذلك. وإذا اختارت فيجب أن يكون على قدر احتياجها.. على قدر معدتها..

ولكن المأساة السياحية المصرية فى كل القرى والفنادق هى أننا نحن المصريين نملأ الأطباق بكل شيء. فلا نأكل إلا بعض الأشياء والباقى نتركه على الترابيزة ليجيء الجرسون ويرميه فى الزبالة. كل هذه الكميات لا يمكن (تدويرها) أى إرجاعها بشكل آخر إلى الزبائن مرة أخرى وتقديمها لنا. حرام والله حرام!

ويأتى كبير الطباخين. وظننت أنه يريد أن يعرض على براعته فى الطبخ ولكنى وجدته يستدرجنى إلى حيث صناديق الزبالة.. وجدت كميات هائلة من اللحوم والسمك والحلويات.. كلها فى الزبالة.. إنها بقايانا.

فلا أحد يعرف كمية الطعام التى تملأ معدته.. وإنما يعرف كمية الطعام التى تملأ عينه.. المصيبة أن العين الضيقة لا يملؤها إلا الكثير، بينما المعدة الواسعة لا يلمؤها إلا القليل!

والمثل الشعبى يقول: وجع المعدة ولا رمى الطبيخ؛ أى أن نملأ المعدة بالقوة. ولكن المصيبة أن نملأ المعدة ونرمى الطبيخ!

مثلا مد كبير الطباخين يده واستخرج عشرين رغيفا من الخبز الكايزر. لقد نزعوا السمسم من فوقها ..بس.. وهكذا باظ عشرون رغيفا ثمنها الشيء الفلانى!

وحتى إذا لم تذهب إلى فندق فإننا فى بيوتنا نسرف كثيرا فى تقديم الأطعمة حتى ولو لم نذقها والنتيجة واحدة.

والمعنى: سفاهة وتخريب وسوء تقدير وتكليف للخزانة الخاصة والدولة بما لا تطيق ورمضان برئ مما تفعلون!

الصبر على الجوع واستقلال الأمة

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، أو ذات ليلة، فإذا هو بأبى بكر وعمر رضى الله عنهما. فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**»

قالا: الجوع يا رسول الله.

قال: « **وأنا.. والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما.. قوما..** ».

فقاما معه.. فأتى رجلا من الأنصار. فإذا هو ليس فى بيته.

فلما رأته المرأة قالت: مرحبا وأهلا.

فقال لها رسول الله: «**أين فلان؟**».

فقالت: ذهب يستعذب لنا الماء.. إذ جاء الأنصارى.

فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه. ثم قال:

الحمد لله. ما أجد أحداً اليوم أكرم أضيافا منى.

فانطلق فجاءهم بعذق ـ الكباسة أو الغصن ـ فيه: بُسر. وتمر. ورطب. فقال: كلوا. وأخذ المُدية.

فقال له رسول الله ﷺ: «**إياك والحلوب**»

فذبح لهم.. فأكلوا من الشاة. ومن ذلك العذق. وشربوا. فلما أن شبعوا. وَرَوَا. قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر:

«**والذى نفسى بيده: لتُسألن عن هذا النعيم يوم القيامة**» ـ سؤال تعديد لا سؤال توبيخ ـ «**أخرجكم من بيوتكم الجوع. ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**»[1].

---

(١) رواه مسلم : انظر رياض الصالحين :٤٩٧.

تمهيد

كثيرة هى المذاهب التى ماتت بموت أصحابها. .

بعد أن كانت لها فى حياتهم دول تحميها. . وإعلام يغالى بمبادئها. . وفجأة. . وعلى غير معاد. . يسقط النظام كله. . ويخر عليهم السقف من فوقهم ومن تحت أرجلهم. .

ذلك بأن بريق المبادئ. . لم يجد القدوة التى تتمثلها. . وتغرس أعوادها فى دنيا الناس. . بل وجد القدوة المعاكسة. . التى تتاجر بأنات المعذبين. . بينما تعيش هى فى أبراجها العاجية عيشة المترفين. . وها هى ذى الشيوعية تعلن عن إفلاسها فى إسعاد البشر.

وقد قرأنا أخيرا. . وبناء الشيوعية يتهاوى من داخله. .

قرأنا أن فى روسيا وحدها ثلاثين ألف مليونير!! يرفلون فى حلل النعيم. . بينما الدماء تجرى هنا. . وهناك. . من أجل المنصب. . وأخيرا. . تسطع شمس الحرية. . فيذوب النظام الشيوعى الذى جمده الصقيع زمنا طويلا. .

أما الحديث اليوم فهو شاهد على صدق الإسلام الذى صاغ القدوة الصالحة المصلحة. . والتى تفضل الجوع. . ولا تأكل بدينها. . وتتحمل المسغبة. . ولا تستدين. . مدركة أن الدول الكبرى كما قيل ـ تقرضنا قرضا سيئا. . لأننا نسدد بالدين الجديد. . دينا قديما. . ليصير الأمر على ما قال الشاعر:

*** الحاكم والمحكوم على خط النار:**

تحت وطأة الجوع. . خرج أبو بكر وعمر معا. .

ولم يكن خروجهما فى اتجاه الحاكم ليدبر لهما لقمة العيش. .وإنما استلهما روح القرآن الآمر بالسعى. . الذى يستنزل به الإنسان رزقه من مالكه سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦].

إن كائنات نباتية بسيطة فى البحر. تغير من نفسها كل لحظة لتقدر على التقاط

الغذاء والتعرض للضياء.

فقضية الرزق مردودة إلى مشيئة الله سبحانه.. أولا.. ثم إلى سعى الإنسان وكسبه.. ثانيا.. ولا ثالث هنا.. ومن ثم يظل الإنسان عزيزا.. وسيد مصيره.. مرفوع الهامة لا يحنيها لأى كائن.. مهما كان!

وكان فى وعى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما توجيه رسول الله ﷺ: «**أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع.. وأعوذ بك من الخيانة. فإنها بئست البطانة**».

وهو بهذا يريد له ولأمته أن تصح دنياهم.. بالغنى.. وأن يسلم لهم دينهم.. بالوفاء.

فلما خرج ﷺ وكان مثلهم جائعا.. كان ذلك نوعا من الشبع والرى..

إن المصائب يجمعن المصابينا..

ولقد علم المسلمون من أخلاقه ﷺ: أنه: «لم يأكل ﷺ على خوان حتى مات.

وما أكل خبزا مرققا حتى مات. ولا رأى شاة سميطا ـ مشوية ـ بعينه قط».

وهو الذى كان بإمكانه أن يأكل ألسنة العصافير على موائد من فضة وذهب!!

وبدأ المشهد المثير فى أعين الناس تجسيدا للقدوة الحسنة ودورها الفعال.. المعين على تجاوز المحنة بسلام..

لقد اختفى رغيف الخبز من بيت الحاكم..وأعوانه على سواء.. وإذن.. فما أسهل أن يشرب الناس من نفس الكأس بعد أن صار الحاكم والمحكوم كما قيل: «كلنا فى الهم شرق»!

إن الأزمة الاقتصادية فى حياة الأمم التى تبنى نفسها أمر وارد. وبلوغ الأزمة ذروتها حتى يختفى الخبز من البيت أمر محتمل.. لكن المشكلة: على من تدور الرحى

إذا بقيت الصفوة.. فى برجها العالى تصدر الأوامر من خلف المكتب المكيف.. بينما الأمة تتلوى من الجوع.. فتلك هى المأساة.

أما إذا ربط الجميع أحزمتهم على بطونهم.. فما أجمل الصبر حين يقسم التقشف على القاعدة والقمة.. ومرحبا بالجهاد الموصول والصبر الجميل سبيلا إلى الغنى.

*** من ثمرات القدوة الحسنة:**

وهكذا تستثمر الأمة الراشدة لحظات الشدة لمصلحتها..

ويتحول الفحم الأسود تحت الضغط العالي. جواهر من الماس الأخاذ!!

وهكذا جراح المؤمنين العاملين: إنها دائما أسرع التآما من جراح المتخاذلين! وهكذا أيضا تشد الأمة من عزائم المكافحين.. ليتحق ما يلى:

١ - تتجه عواطف الجماهير إلى القدوة.. فتحبها.. ثم تطيعها.. لأنها تحبها.

٢ - يصبح الحب ذلك الرباط الجامع: فيحب المسلم صاحبه. وإن لم يكن من عشيرته.

وفى ظل هذا التراحم. تتوارى أشباح الأثرة.. ليكون الإيثار. وكما يعود الطائر الجاهد إلى وكره إذا جن الليل.. تدخل الأمة من الحب فى بستان ظليل.

٣ - تكشف المحنة - كما قيل - عن نفاسة الطاقات المدفونة فى أعماقنا. والتى تسفر عنها المحنة الطارئة. وأنها أسمى من كل متاع.

٤ - إلى جانب أنها تؤكد أن ما حرمنا منه لحظة التقشف ليس ضروريا ويمكن الاستغناء عنه.

٥ - ثم يكون التحرر من التبعية للنعيم مسك الختام..

وإذن فنحن أسعد حالا ومآلا من هؤلاء الذين غذوا بالنعيم. فكانوا على ما قال الحق تعالى.. عبيدا له: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود١١٦].

*** الدولة تمارس دورها:**

استشعر الحاكم آلام الرعية.. فلم يكن معزولا عنها.. ثم وضع الخطة الفورية لتجاوز الأزمة فاستصحب أعوانه إلى بيت أبى الهيثم الأنصارى.. استصحبهما.. ولم يأمرهما بالعودة إلى البيت.. إلى أن يسعى نيابة عنهما.. ثم يجيئهما بحصتهما التموينية فى طبق من فضة!

ولكن .. مضى الجميع سويا .. يواجهون الموقف.. بقلب واحد.. وكان أن طرق بهما باب الأنصارى الذى يعرف سلفا أنه ميسور الحال.. وقادر على الوفاء بحق الضيافة. فرارا من إحراج صاحب غير مستعد للوفاء بحق الضيف.

*** صديق العائلة ودرس فى الاحتياط:**

كان ﷺ أشرف الخلق على الإطلاق.. وكان بصحبته أقرب أصحابه إلى قلبه.. ومع ذلك لم يقتحموا بيت أبى الهيثم وهو غائب!

وهى إشارة.. فى بواكير الدعوة.. إلى ما سوف يسفر عنه الغد مما يسمى «صديق العائلة» الذى يستغل خلو البيت من سيده.. فيدخل .. ومعه الشيطان ليحدث ما لم يكن فى الحسبان!

*** الكرم الأنصارى:**

بدأ الكرم الأنصارى فى شخص أبى الهيثم على النحو التالى:

١ - حمد الله حمدا جزيلا أن خصه بأضياف كان بهم أسعد أهل الأرض.

٢ - انطلق كالسهم ليحضر لهم من كل صنف لديه: البسر، والتمر، والرُّطب ليختار الضيف ما يحلو له.. أى أنه لم يفرض طعاما معينا.

٣ - ذبح لهم شاة.. تم بها الغداء كمالا.

*** المسلم بين الاستثمار والاستهلاك:**

قبل أن يذبح المضيف الشاة قال له ﷺ: « **إياك والحلوب**».

وهى لفتة نبوية كريمة.. يشتق منها علماء الاقتصاد اليوم مذاهب ينتحلونها

لأنفسهم بينما هى بنت الإسلام!

إنه يرشده إلى ذبح شاة لا تحلب.. محذرا إياه من ذبح الحلوب.. لتبقى تدر الخير..

فقد يحمله انفعال الفرح إلى الذبح.. بلا تبصر للعواقب.. والمفروض أن يبقى نهر الخير جاريا.. وألا يحملنا الانفعال على الاستهلاك.. بل يجب أن يكون الاستثمار فى حسابنا.. ادخارا للغد القريب والبعيد..

وما أحوج أمتنا لتدبر هذا الدرس.. وبخاصة أولئك الذين يسرفون فى المهور.. إلى حد يصل جهاز العروس إلى عشرات الألوف.. عشرها فقط يحتاج إليه البيت.. والتسعة أعشار تصير فى البيت متحفا يسر الناظرين.. بلا عائد..

لقد ذبحنا - فى فورة الفرح - الشاة الحلوب واشترينا بها أجهزة لا نحتاج إليها.. فتخلينا بذلك عن سنة أصيلة جليلة.. بينما نحتفى بسنن من عاداته ﷺ.. يتنافس فيها المتنافسون.. ولا تكلفنا شيئا.

*** أهداف المسلم:**

إذا استهدف المستهلك المادى إشباع حاجاته الفردية.. وإذا حكم تصرفاته أحيانا بمجموعة من القيم الأخلاقية.. فإن لسلوك المسلم بعدا آخر هو : ابتغاء ثواب الله تعالى ورضوانه..

ومن ثم فسلوكه محكوم بهذه الاعتبارات:

أ - مدى اعتداله فى استهلاك السلع والخدمات.

ب - التزامه بأداء الزكاة كفرض واجب الأداء.

جـ - إنفاقه للصدقات بهدف الرعاية الاجتماعية. كواجب تطوعى.

د - إدخاره للورثة.

هـ - استثمار مدخراته على أسس غير ربوية (١) .

---

(١) المسلم المعاصر. العدد ٥٤/ ٧١.

وإذن فحركة المسلم محكومة بمدى إسهامه فى إسعاد أمته:

(فالمطلوب من الإنسان هو: إعمار هذه الأرض لصالح البشر. وليس إشباع الرغبات.

لأن الشهوة ليست ملكة تمييز وإدراك. إنما هى امتداد - غير طبيعى ولا ضرورى - للغرائز فى صورة رغبات جامحة، تتجاوز الحد الضرورى لمطالب الإنسان إلى ما لا ضرورة له، ولا حد له من لذات الحس، وغرور المظاهر، وأهواء العرض الأدنى، فهى خروج على طبيعة البدن، وتطلع أو تعلق بوهم يبدو ولا حقيقة له، إذا وضع تحت أشعة الفكر)[1].

إن المواجهة بين الحق والباطل لم تعد جنديا يواجه جنديا.. بل «الدولار الأمريكى أما م «الين» اليابانى..

ونحن مطالبون بإدراك أهمية الاقتصاد القوى فى معركة لا يثبت فيها إلا أهل الزهد واليقين.. والعمل.

*** الدرس المفيد:**

عندما خلت المعدة من الطعام.. وعندما لم تكن فى الجسد الواهن طاقة.. لم تكن هناك حاجة إلى موعظة لن تجد أذنا واعية..

فلما شرب الجميع ورووا.. جاءت الموعظة فى وقتها المناسب وذلك قوله ﷺ: **«والذى نفسى بيده. لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة»** - «سؤال تعديد لا سؤال توبيخ»:

« أخرجكم من بيوتكم الجوع.. ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»؟!!

*** الطريق إلى رخاء الأمة:**

إذا كان من مقررات الإسلام:

(نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد. ويهلك آخرها بالبخل والأمل).

---

(١) الخيرية: جمادى الأخرة/ ١٤٠٠.

فقد كان ذلك الموقف تطبيقا عمليا لهذه السنة الاجتماعية.. والذى تفتح أبصار الأمة على مواقع أقدامها قبل خطوها.. لتعرف السبيل إلى الرخاء.. وعليها أن تختار لنفسها ما يحلو. وكما أشار العلماء البصراء بطبائع النفوس:

إن اليقين:

١ - إيمان وثيق بالله تعالى.

٢ - يدفع إلى التضحية.

٣ - ويحمى من الجبن والخيانة.

٤ - ثم يرفض المساومة على المبادئ.

*** الزهد:**

تعفف عن حقوق الغير. والقناعة بالحلال. والسعى من أجل تحصيل الرزق.

وهكذا كان محمد ﷺ وأصحابه هنا.. حيث تحركوا.. ومشوا فى مناكب الأرض موقنين زاهدين.. ثم جاءوا.. ولم يأكلوا بالإسلام..

وهكذا كان أبو الهيثم الكريم.. الزاهد.. المنفق ماله فى وجوه الخير جذلان راضيا.. ولم يكن ذلك المرابى الذى يخطط للمستقبل بالقلم.. والمسطرة.. لاهيا عن ذكر الله.. واقعا تحت ضغط هذا التخطيط فى معصية الله.. من أجل أن يزيد الرصيد فى البنك! ولم يكن ذلك البخيل الذى منعه البخل من إسعاد أمته وفرض عليه الأمل الطويل غفلة أنساه حقوق الغير عليه.. فشُغِل بحظوظ ذاته.. عن حقوق الغير..

*** وبعد:**

فلقد قال أبو هريرة رضى الله عنه فى مستهل الحديث: ذات يوم.. أو ذات ليلة:

ومع أن اختلاف الظرف لن يغير من واقع القصة شيئا.. لكنه الدرس المفيد.. الشاهد بالأمانة العلمية فى النقل.. والذى لابد من مراعاته أيضا فى علاقاتنا الاجتماعية..

فعندما نحكم على الآخرين.. أو نروى عنهم.. فلابد أن نكون صادرين عن اليقين.. فإذا لم نملك اليقين.. فحذار من الظن والتخمين!

* * * *

خواطر فى العشر الأواخر

مدخل:

فى رمضان . . لا أقيد نفسى بالصلاة فى مسجد واحد . . فرارا ممن يلاحقوننى بالرغبة فى الحديث . . بين صلاة التراويح. فقد لا يكون المزاج معتدلا . . ومن ثم يكون الحديث مملا . . وإذن . . فقد أنسرب إلى مسجد قد لا يعرفنى فيه أحد . . لأحقق متعة الحضور فى مكان تحس فيه بالحرية حتى تغيب فى زحمة الناس . . بعيدا عن الأضواء.

ولكن . . ما كل ما يتمنى المرء يدركه: فكثير ما كان يفطن إلىّ بعض المستمعين . . وتبرز الرغبة فى حديثى قوية متجاهلة ما قد يكون لدى من مشاغل أو مشكلات . .

ومن هذه المشكلات أننى قد أسمع الآية وأنا فى طريقى إلى المسجد . . فأهّبّ لاستقبالها بكل مداركى . . وقد تلوح لى فيها دروس . .

ومن ثم . . فإذا صليت بالناس إماما . . فقد تخوننى الذاكرة المشغولة بالمعنى الجديد . . وإذا تحدثت . . تحدثت على مضض!

ولكن الأمر قد ينتهى أخيرا لصالح الراغبين . . فأتقدم لأتحدث عن فكرة أتخيرها على عجل . . وفى دقائق . . ثم أحس وأنا عائد بضرورة تسجيل ما قلت . . فكانت هذه الصفحات . . والتى كانت فى العشر الأواخر من رمضان . . وقد أضفتها إلى ما سبق من صفحات نشرت من قبل فى كتاب يأخذ اليوم حجمه الجديد . . بهذه الصفحات . . هذه الصفحات التى هى فى بابها . . غيض . من فيض . وإلماع . . وليس بالإشباع . . وعلى قدر المستطاع!

*****

تمهيد

قد نسافر طويلا . . نضرب فى الأرض . . ونغيب عن مسقط الرأس . . عن القرية . . نغيب سنين عددا . . ولكن . . تبقى القرية . . تبقى جذورها ضاربة فينا . . ومن بعدها . . هذه الدنيا لا تكفينا!

وتبقى دروسها تغذينا . . ومن دروسها: أننا قد نعد الأرض . . والذور . . وكذلك الدور . . ثم نعبِّد الطرق . . ونقيم الجسور . . وأهم من ذلك كله: إعداد الفلاح . . الذى يجعل لكل ذلك قيمة . . الفلاح الذى أعرفه عن كثب:

إنه . . إذا كان أقل الناس علما . . فهو أكثرهم حُبا . . وأغزرهم حَبًّا . . نتاجا . . فصار بالحُب إنسانا . . وصار بالحَبِّ غنيا . . مستقلا.

ومن دروس القرية أيضًا: تلك الدار القائمة على حافة الترعة هناك: فهذه الدار إنما تعلو . . لا من ذاتها . . وبذاتها . . وإنما يضاف إليها من خارجها: الطوب . . والحديد . . والخشب . . . أما هذا الإنسان فإنه لا يعلو كما يعلو البناء . . ولكنه ينمو كما ينمو النبات : النبات . . الذى ينمو من داخل نفسه . . وبما يتمثل داخله من غذاء وماء وهواء وضوء!

وذلك ما يفعله الصيام فى حياة الإنسان!

فالصائم بهذا الجوع يتكون ذاتيا فى رمضان وعلى مدى ثلاثين يوما:

يطلع هلاله . . ويسطع نجمه . . وإذا منهجه فى الإعداد والتربية يبدأ عمله:

كما يقول الأدباء:

حين يسرى اليقين فى كل حَنان . . ويجرى التسبيح على كل لسان . . وتتنزل الرحمة فى كل مكان.

ثم يروض الجوع هؤلاء الصائمين على أن يتحملوا من بعد مرارة الحياة.

إن الجوع ـ كما قيل[1] ـ: دواء. .والعاقل إنما يتحمل مرارة الدواء . . من

---

(١) الفكرة هنا للشيخ على الطنطاوى.

أجل ما يرجوه من شفاء .. شفاء على الأقل .. من علة النَّهمَ .. والبحث عن الثمين من الطعام .. اكتفاء بالكسرة .. وحصاة الملح .. والتى ذاقوا حلاوتها بعد الحرمان طول النهار..

[ذلك بأن الطعام لا يطيب فقط بغلاء ثمنه .. ولا بجودة صنعه ولا بجمال أطباقه ولا بحسن مائدته .. ولكنه يطيب: بالجوع الذى يشتهيه .. وبالصحة التى تهضمه..

وأرخص طعام .. مع الصحة والجوع ألذ من موائد المترفين .. لمن كان مريضا أو شبعانًا] لقد امتحن آدم عليه السلام بشجرة الخلد .. ونازعه شوقه إليها زمنا.. كان من آثاره ترويض الإرادة على الصمود فى مواجهة العقبات..

وكذلك يفعل رمضان فى دنيا الناس .. الناس .. الناس .. المسلمين .. الذين يتفرقون فى البلدان ..ثم يجمعهم رمضان ليلقنهم فى بناء الإرادة دروسا.. لفت المربون أنظارنا إليها. فأنت ترى التفاحة المدلاة .. فتشتهيها .. لكنك لا تمد يدك إليها .. والشراب البارد يدعوك فى الهجير .. لكنك تزهد فيه..

والمنادى بالسحر يدعوك للقيام .. من أحلى منام .. فى السحر .. يدعوك إلى طعام ألذ منه المنام..

[عندما يبزغ الضياء]:

يعنى ذلك كله: تخلق فضيلة الصبر فى كيان المسلم .. وعلى هذا المدى الطويل والصبر ضياء .. وكما أن الشمس ضياء .. نور .. وحرارة .. فإنه ضياء :حرارة .. وحيوية .. ومقاومة..ثم هو فى نفس الوقت نور .. نور يقذفه الله تعالى فى قلب المؤمن .. فيكشف به كيد الشيطان الراغب.. فى احتلال إرادته.

ولن تتعرض الإرادة للاحتلال إلا فى الظلام .. وحين يأمر الشيطان جنوده أن يغبشوا الجو بالشبهات .. وبالشهوات ... وذلك قوله تعالى:

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي

الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[1].

[صوم المتقين وحصن الأمان]

وهكذا الشيطان يحشد جنده .. ويشحذ عُدَده .. فى معركة فاصلة .. وبكل الأسلحة .. إنها معركة الغاصبين المحتلين الذين قيل فيهم:

أغـــاروا عـلـــى الدار فـى ليـلـــة ففــرّ الصـبـــاح ولـم يــــرجــع!

ولكن الضياء الكاشف فى قلوب المتقين .. كشف لهم طبيعة الميدان .. وطبيعة العدو .. فواجهوا المعركة بما يكافئها .. من علم .. وثبات .. فوّت على العدو أغراضه:

لقد أحبوا الجنة .. فأعدوا لها قلبا صبورا .. وتجاوزوا الأقوال .. إلى الأعمال التى هى أعلى صوتا .. مؤكدين للفارغين أن العمل الدؤوب .. وما يتطلبه من صبر جميل هو الشىء الوحيد الذى يثبت أننا أحرار حكماء..

لقد واجه المتقون الشيطان وجنده .. على أرض مكشوفة .. بل إنهم من الشيطان دائما فى حصن حصين:

قال كعب الأحبار: حصون المؤمنين ثلاثة: المسجد حصن ... وذكر الله حصن .. والقرآن حصن...

ومن هذه الحصون فى أمن دائم .. وشوق عارم إلى كل ما يرضى ربهم سبحانه:

دلائل العشق لا تخفى على أحد وحامل المسك لا يخلو من العبق

ثمن الجنة:

لقد حث المتقون المطايا راغبين فى جنة عرضها السموات.

إن سلعة الله غالية .. وإنها الجنة .. وقد حاولوا أن يدفعوا ثمنها فسددوا.. وقاربوا..

---

(١) الإسراء: ٦٤

ومن ثم . . كانوا حجة على الفارغين . . الذين قل حياؤهم حين طمعوا فى الجنة . . بلا عمل.

وكيف يجود سبحانه برحمته على من بَخِلَ بطاعته؟!!

من أجل ذلك قال علماؤنا: طلب الجنة بلا عمل . . ذنب من الذنوب. . وانتظار الشفاعة بلا سبب . . نوع من الغرور. .

وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع . . حمق وجهالة.

فرصة العمر:

ألا وإن الصوم فرصة العمر . . ألم تر إلى قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾[1].

وكيف جاءت الآية الكريمة فى تضاعيف الحديث عن الصوم . . وبحذف فعل الأمر: قل. . وهذا يعنى أن الصوم لخلوه من الرياء يكون تعاملا مباشرا مع الله تعالى . . والذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء. .

وليس الأمر كما هو مع الطبيب النفسانى الذى هو عبد المعين المحتاج مثلك إلى معين؟!!

والعبرة بالخواتيم . . فلننتهزها فرصة للتوبة النصوح. .

إن تعب الطاعة سوف يذهب . . ويبقى ثوابها.

كما وأن لذة المعصية ستذهب . . ويبقى عقابها . . إنه ثواب ينسيك كل ما عاينته فى عبادتك . . وكأن شيئا لم يكن . .

ثم هو عقاب أليم . . يمحو من ذاكرتك كل نعيم زال . . وأيضا: كأن نعيما لم يكن.

فلنفرد شراعنا . . فرارًا إلى الله تعالى . . ودليلنا على الطريق ما قاله

---

(١) البقرة: ١٨٦.

علماؤنا: إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره وحوائجه لطاعته.

وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش فى خدمة غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بلى بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته .. قال تعالى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]

فواعجبا لمن يدعى المحبة، ويحتاج إلى من يذكره بمحبوبه، فلا يذكره إلا بمذكر.. أقل ما فى المحبة أنها لا تنسيك تذكر المحبوب.

ذكرتك لا أنى نسيتك ساعة ... وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى
حتى متى؟ وإلى متى نتوانى ، ... وأظن هذا كله نسيانا
والموت ويطلبنا حثيثا مسرعا ... إن لم يزرنا بكرة مسَّانا
إنا لنوعَظ بكرة وعشية ... وكأنما يعنى بذاك سوانا
غلب اليقين على التشكك فى الردى ... حتى كأنى قد أراه عيانا
يا من يصير غدا إلى دار البلى ... ويفارق الإخوان والخلانا
إن الأماكن فى المعاد عزيزة ... فاختر لنفسك إن عقلت مكانا!

الاعتكاف

الاعتكاف: فرار بالنفس .. التى تعتزل ضوضاء الحياة .. إلى حيث السكون والقرار..

ولأن كل الناس لا يطيقون هذه العزلة بطبعهم .. بل ولأن منهم من لا يطيق

أن يعيش . . إلا فى الضوضاء . . لأن الناس كذلك . . فقد شاءت إرادة الحق تعالى أن يكون سنَّة . . لا فرضا . . وأن يكون فى مسجد . . وفى رمضان . . أعنى: فى جدُ روحى. يرتفع فيه المسلم فوق جواذب الأرض . . ليلحق فى جو السماء.

اعتكافه ﷺ:

وبين يدى تكليفه ﷺ بالرسالة . . نراه وقد اعتكف فى غار حراء ليالى ذوات العديد . . ثم يعود . . ليتزود لمثلها . . مستغرقا فى تأملاته وسبحانه متزودا بما يمنحه التفكير من معرفة تعينه من بعد على تحمل متاعب الرسالة . .

وعلى سنته اعتكف المتقون . . ومنهم الإمام الغزالى رحمه الله: فقد ارتحل إلى مسجد بعيد . . ولا يعرفه أحد . . ولم يكن اعتكافه مجرد سبحات غائمة هائمة . . وإنما استصحب معه أعضل المشكلات العلمية . . لعله فى العزلة أن يجد لها حلا.

مغزى الاعتكاف:

١ ـ إن الاعتكاف فى جوهره: مناقشة للنفس . . ومراجعة للماضى . . للمضى قدما . . أو تعديل خطة السير.

٢ ـ فهو إذن: استعداد لاقتحام المستقبل . بطاقة روحية وثابة . . وتأهب للحوادث الهاجمة . . حتى لا نُفَاجأ بها فيختل ميزاننا.

الهاربون من أنفسهم:

هناك أناس مثقلون بالخطايا . . وماضيهم الحافل بها يتقاضاهم وقفة تأمل يناقشون فيها أنفسهم الحساب . . عن طريق الاعتكاف . .

ولكن تنقصهم الشجاعة الأبية . . ومن ثم لا يتحملون مواجهة النفوس بأخطائها فى سالف الأيام . . إن ما كسبته أيديهم ضخم . . ضخم . . ولو أنهم اعتزلوا . . لتراءى لهم ذلك الماضى بأوضاره.

من أجل ذلك قرروا الهروب من أنفس لا يستطيعون مواجهتها بما قدمت .. فألقوا بأنفسهم فى صخب الحياة .. حتى لا يبصروا .. ولا يسمعوا ذلك الصوت الآتى من الماضى.

معتكفون: خارج الزمن:

وفى مقابل ذلك ناس طيبون .. معتكفون .. لكنهم .. لكنهم هاربون من الزمن:

إنهم لم يستشعروا جلال المناسبة.. فلم يتيحوا لأنفسهم فرصة يصفّون فيها أقدامهم فى المسجد.. ويُصَفّون أرواحهم بالذكر .. فاستصحبوا معهم مالذ وطاب من الطعام والشراب .. وقد تشم رائحة الشواء .. يسيل لها اللعاب .. بينما الموقف للدموع تسيل رغبا ورهبا .. فى لحظات مباركات ولا يقطف ثمارها إلا الزاهدون.

إعداد القوة:

قلنا: إن الاعتكاف صورة من الإعداد للمستقبل .. فلماذا لا يكون خلوة ينطلق فيها فكر الشباب فى كل أفق .. فى محاولة للابتكار فى هذه اللحظات الخصبة المباركة؟

إن الذكر حينئذ.. شىء عظيم .. ولكى تبقى القلوب ذاكرة .. وأهلها أقوياء..فلابد من خطوة أخرى..نتجاوز بها مجرد التفكير إلى التدريب والتجريب.

لقد ذهب الفتى المسلم إلى دولة أوروبية.. فلما دخل المعمل .. بكى!

لماذا! لقد وجد نفسه أكثر علما .. لكنه .. كان أقل تجربة وتطبيقا..

فليكن الاعتكاف فرصة للتفكير ..والتدبير ..والتعمير ..بدل أن يكون مسلاة .. تتصارع فيه الآراء فقط حول حكم الإسلام فيه..وأى أنواع الذكر أليق به ..

من دروس السلف:

لقد اختلف السلف .. لكن اختلافهم كان رحمة بالأمة .. وكيف؟

قال البصراء: لقد علم الله تعالى أن الباطل سوف يكوّن الأحلاف . . ومراكز القوى . . إلى جانب مؤامراته السياسية والعسكرية . . والاجتماعية لضرب الإسلام.

من أجل ذلك أمر سبحانه بإعداد القوى . . وإلى أقصى درجات الإعداد . . والقوة معنوية . . ومادية: وقد اختلف علماؤنا فى المراد بالقوة:

قال الإمام مالك: هى الخيل. أو الرمى . . وقال غيره خلاف ذلك . .

ونتيجة لهذا الاختلاف الإيجابى اهتم كل فريق بما اقتنع به من صور القوة:

فمن قال: القوة: الخيل: اهتم بالخيل ومن قال: هى الرمى . . اهتم بفنون الرمى . . فأجاد كل الفنون.

هدف القوة:

ولم تكن هذه القوة عدوانية . . ولكنها كانت خدمة للسلام.

وتدعيما له . . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى **﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾**. ومن آثار ذلك:

كف بأس الذين كفروا . . حتى لا يفكروا فى الهجوم علينا . .

ولاحظ قوله تعالى: **﴿.. عدو الله وعدوكم﴾**.

ثم تذكر ما قاله الباحثون هنا:

[ومن الغفلة بمكان: أن يعتقد البعض: أنه من الممكن أن يكره أعداؤنا الإسلام . . ثم يحبوننا . .

إنهم: كما أنهم عدو لله . . فهم أعداؤكم . .]

وقد حلّ الفلاح البسيط هذه المعادلة حين قال: من أحبنى . . وكره أخى . . فلا خير فيه: لا لى . . ولا لأخى!!

وإذا كان الأمر كذلك . . فكم تكون العداوة شديدة إذا كانت القضية بين كافر . . ومؤمن: كيف يكره دينى . . ثم يحبنى!

إن الدين هو الحياة .. والكارهون له .. غائظون .. وهم الذين عناهم الشاعر القائل:

إن الذيـــن ترونهـــم إخـــوانـكـــم:

يشـفــى غليل صدورهم أن تصرعوا!!

*****

ليلة الفرقان

من دروس التربية الإسلامية:

أن الله تعالى أخفى الاسم الأعظم . . لندعوه تعالى بأسمائه كلها . . .

كما أخفى تعالى الأولياء . . فغابوا فى زحام الناس . . لا يعرفهم أحد . . حتى لا يتكبر أحد على أحد! ثم أخفى ليلة القدر . . لنستمر فى عبادته تعالى . . فنحقق بالاستمرار ما شاء لنا تعالى من ثواب . .

ميلاد الكرامة الإنسانية:

ولقد نزل القرآن الكريم فى تلك الليلة المباركة . .وإذا كان الحق تعالى قد أكرم الإنسان بهذا القرآن . . فما هو واجب الإنسان ليظل أهلا لهذا التكريم:

أولا: تلاوته وتدبره.

وقد قال المنفلوطى: [بليت اللذات كلها . . ولم تبق إلا لذة تدبر هذا القرآن].

ثانيا: مدارسته واستنباط أحكامه.

وعندما قال ﷺ فى حديث له «**... ذلك عند ذهاب العلم..**».

فقال زياد بن لبيد: وكيف ـ أى كيف العلم ـ ونحن نقرأ . . ونقرئ أبناءنا . . وهم يقرؤون؟

فقال له ﷺ:

«**.. أوليس هذه اليهود والنصارى يقرأون كتبهم ولا ينتفعون بشىء؟!!**»

ثالثا: قبول أحكامه . والرضا بها . . ليكون مقياسا يضبط حركات حياتنا . .

رابعا: العمل به . .

لقد نشط غيرنا فأفاد من القرآن . . ويبقى أن نشعر بأننا أولى الناس به . .

لقد حفظ العرب للريح أسماء كثيرة . . ولكنهم فى الغرب حللوها . .

وأفادوا منها . .

لقد جددت البشرية كل حاجاتها: فانتقلت من الجمل . . إلى سفينة الفضاء . . ومن الشموع . . إلى ثريات الكهرباء.

فلماذا لا نجدد بالقرآن حياتنا؟ فإذا لم تستجب أمتنا لنداء القرآن . . فلا لوم عندئذ على رياح تقتلع الشجرة النخرة . . ولا تلام الذئاب إذا أكلت من الغنم القاصية!

لقد شهد أعداؤنا للقرآن من حيث لا يحتسبون بما حققوا فى ضوئه . . وما يحققون.

ومليحة شهدت لها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

ولقد كانت أوامر القرآن تنزل . . فتنفذ فورا . .

وبينما شباب يغتسلون بالنور فى الصباح . . إذا بهم وفى المساء . . يغتسلون بالدماء على أرض المعركة:

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر

أما بعد:

فها هو ذا رمضان ينصرم . . وأما أحرانا أن نضاعف العمل . . وقد آذنت شمسه بمغيب . . لنتوج الصيام . . بمسك الختام . .

وأبرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الديار من الديار!!

*****

الهمة العالية

يقولون: إن همة الأمة على قدر همومها . . وهَمُّ الأمة الإسلامية الأكبر هو: تحصيل ملكة التقوى. . من أجل ذلك كانت همتها معلقة بالثريا . . فلا تقنع فى سباقها بما دون النجوم!

لكن . . لماذا كانت التقوى هدفنا الأكبر: لأن بها يتحقق توازن المسلم. . ووسيطته التى نال بها الشهادة على الناس: فالمتقى يؤدب بالإنفاق غريزة التملك ﴿.. **الذين ينفقون فى السراء والضراء..**﴾

وبكظم الغيظ: يردع غريزة الغضب ﴿.. **والكاظمين الغيظ..**﴾

وبالعفو. . يتحدى غريزة الأنانية﴿.. **والعافين عن الناس..**﴾

ثم هو الذى صفى حساب غريزة الجنس . . بالتوبة بعدما فعل الفاحشة . . ﴿ .. **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم..**﴾ انهم يذكرونه تعالى بجبروته . . فيخافون. . ثم يذكرونه تعالى برحمته . . فيستغفرون. والمسلم فى حركته تلك المباركة «محسن» ﴿**والله يحب المحسنين**﴾.

إنه ينفق . . بلا منٍّ ولا أذى . . ويكظم غيظه . . بلا تبرم ولا سخط . . ويعفو . . رضيً النفس . . ويتوب عن الفاحشة . . ثم يحاول أن يصدِّر طهره إلى غيره ممن تورط مثله يوما.

وبهذه المعاناة. . تصير التقوى صعبة المرتقى . . ولا يلقاها إلا الذين صبروا الذين يعبدون الله تعالى كأنهم يرونه: شوقا ومحبة . . وإلا . . فكأنما يراهم سبحانه وتعالى . . فيعبدونه هربا إليه وخوفا منه.

مجالات التقوى:

والإسلام يحدد للأمة هذه المجالات التى تتحرك فيها لتصل فى النهاية إلى ذروة التقوى:

أ ـ مجال المجتمع.　　　　ب ـ ثم البيت.

جـ - وعلى مستوى الفرد نفسه . . وقد جاءت الإشارة إلى ذلك كله فى سورة البقرة وبعد الحديث عن خصائص المتقين:

أما فيما يتعلق بالمجتمع . . فتقرأ قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

وفيما يتعلق بالأسرة يقول تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[٢].

وعلى مستوى الفرد: يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام...﴾

وقفة عامة بين يدى الآيات الكريمة:

ترسم الآيات الكريمة تلك الدوائر الثلاث، والتى تتم فيها حركة المسلمين ليتوجوا سعيهم المبرور بالتقوى . .

ولأن الغاية صعبة المرتقى كما قلنا . . فإن سياق الآيات الكريمة يشد من عزائم المؤمنين ليسارعوا إليها . . ويتنافسوا فيها.

ومن أجل ذلك آثر السياق الكريم التعبير بالفعل (كتب» ومايشى به من ثياب لا يقبل المساومة . . ثم ما يشير إليه قوله تعالى ﴿عَلَيْكُمُ﴾ من معنى الإلزام الذى لا يستقيم التفلت من تبعة الأمر بحال.

فإذا التزمت الدولة فحافظت على الأمن بالقصاص . . ثم انبعثت قيمة البر والصلة تلعب دورها بتأمين مستقبل الأقرباء الذين لا ميراث لهم . . وكان من وراء

---

(١) البقرة ١٧٨، ١٧٩.

(٢) البقرة: ١٨٠

إخلاص عميق . . وضمير صاح . . أنشأه الصيام فى كيان المسلم.

إذا تم ذلك كله . . كان للأمة ما أراده الله تعالى لها . .

[القصاص .. وملامح المنهج القرآنى]

ولا بأس من أن نتأمل طويلا آية القصاص. . فلعل فى هذه الوقفة ما يجلى حقيقة المنهج الإسلامى فى الدعوة والتربية . . والذى يخرس الله به ألسنة تحاول النيل منه. .وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول الآية:

أن أقواما من العرب كانوا أعزاء أقوياء . . مغرورين . . لا يقتلون بالعبد منهم . . إلا سيدا . وبالمرأة منهم . . إلا رجلا . . وبالرجل منهم . . الرجلين. . وكانوا ينكحون نساء الأحياء الأخرى . . بلا مهر . . يفعلون ذلك: استطالة بالقوة . . وإدلالا بالعزة.

وكانوا إلى جانب ذلك أسرى أعراف جاهلية إرهابية: فولى القاتل . . يساعده على الهرب . . وقد تؤويه قبيلة أخرى . . فى محاولة للإفلات به من إقامة الحد عليه ونزلت الآية الكريمة لتقول لهم:

﴿ولكم فى القصاص حياة﴾

إن القصاص . . وهو الموت . . محل لضده . . وهو الحياة!

ثم هو حياة منكرة» بمعنى أنها عظيمة: لأن القصاص: يحمى من يريد القتل من القتل . . ويحمى المقتول . . ثم يحمى كل من يتصل بهما . . من تحتويهم فتنة تأكل الأخضر واليابس.

المرشحون للوصول:

والمرشحون للوصول إلى مرفأ التقوى هم أولوا الألباب. .

وتقول الآية الكريمة: **﴿فاتقوا الله يا أولى الألباب﴾** ولا تقول أيها العقلاء: لماذا؟

إن العقل هو: عقل الفيلسوف . . وإن شأن الفيلسوف أن يرتب المقدمات . . ليصل إلى نتيجة من غير أن يتأثر القلب . . ولا تهتز المشاعر.

أما اللب: فهو العقل العاطفى . . الذى يحرك المشاعر ويستثير القلب . . ليرضى أو لا يرضى. . والذى يستقبل الفكرة بشوق حار . . فينفعل بها . . ثم لا يهدأ حتى ينفذها . . بل ويدعو غيره إليها.

فليست القضية عند أولى الألباب قضية عقل يفهم أو لا يفهم . . يصدق أو لا يصدق . . وإنما هى بالدرجة الأولى قضية قلب: يرضى أو لا يرضى . . إنه الزكاء. . وليس هو فقط الذكاء!

لقد كان المشركون أذكياء . . يفهمون . . **﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولون الله﴾** . . . لكن قلوبهم لم تكن زاكية . . ومن ثم . . لم يؤمنوا . . لم يذعنوا . . وإذا كانوا يقولون: ليس كل مسافر . . حاجاً ولا كل جبل . . عرفات . . وليس كل بيت . . كعبة . . وليس كل مكلف . . عاملا . .

إذا كانوا يقولون ذلك . . فإنا نقول: وليس كل عاقل موفقا . .

لابد من اللب . من الصفاء . . سبيلا إلى التقوى . . من أجل ذلك يقول تعالى: **﴿لعلكم تتقون﴾** . . ولم يقل لتتقوا . .

فهناك رحلة. . وسفر بعيد . . ومعاناة . . ولا يتحمل مسؤولية ذلك إلا أولوا[1] الألباب. .

هم الأجدر بوصف الصلاح. . لأنهم يؤدون حق الله . . وحق عباده. .

ومن كان كذلك فهو المتقى . . وهو الأكرم على الله تعالى . . وإن كان مجهول القبر . . مجهول التاريخ . . بلا رقية وبلا ضريح!!.

من ملامح الحكمة :

فى آية القصاص . . عالج القرآن الكريم هذه القضية . . بشقيها الجنائى والاجتماعى فجمع بين العدل والرحمة:

فالعدل: إذا طلب ولى القتيل القصاص . . وذلك قوله تعالى: ﴿. . كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ . . ﴾

والرحمة: إذا أسقط أولياء الدم . ورضوا بالفدية. وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ . . ﴾

وهكذا: يُلزم بالفرض . . ثم يحبب فى العفو.

فالقصاص إذن ليس إثارة للأحقاد . . ولكنه للحياة!

[حتى إذا جمحت السورة البهيمية يوما وسقط الفرد سقطة حيث لا تراه عين. ولا تطوله يد القانون . . تحول الإيمان نفسه وخزا للضمير . . ولوّامة عنيفة مؤرقة. لا يرتاح صاحبها حتى يعترف بذنبه مختارا . ويتحمل العقوبة راضيا . . تفاديا عقاب الآخرة][1].

ومع هذه الصرامة والجدية . . إلا أن رباط الأخوة ما زال قائما ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ . . ﴾

فالأخوة قائمة حتى بين القاتل وولى الدم، يطلب الولى الدية بمعروف . . ويؤديها القاتل بإحسان . . استجابة لهذه الأخوّة الجامعة والتى هى أعلى وأغلى من أخوة النسب . .

وهكذا يتبين لنا ذلك الخيط السارى فى نسيج المنهج القرآنى وهو:

أنه دائما بين أسلوب القصاص وأسلوب العفو . . فى سياق واحد . .

يتضح ذلك من مثل قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[2].

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ . . .﴾[3].

وفى هذا رد على المستشرقين الظانين بالإسلام ظن السوء . . حين تحدثوا عن وحشية الإسلام وقسوة نظامه . . وإنها لآراء فاسدة نجعلها تحت أقدامنا ولا نرفع

---

(١) من مقال للندوى.   (٢) النحل: ١٢٦   (١) الشورى: ٤٠.

لها رأسا.

ومن المؤسف أن هناك من تأثر بمثل هذا الإتهام الباطل فزعم أن فى بعض الأحكام قسوة:

١ - ونرد زعمهم بأن فى بعض الأحكام قسوة .. ولكنها القسوة الحازمة الرادعة..

ولقد قال علماؤنا هنا: يجب أن يُعلم بأن الشريعة جاءت أساسا لتحرير الإنسان من عبودية الهوى .. ولو جرت على الهوى .. وكان حاكما .. لما كان من داع للشريعة.

٢ - ليس فى أحكام الإسلام ما هو فوق الطاقة.

٣ - ما كان فيه عسر أحيانا . أعفى منه المسلم بالرخص: كالمرض والسفر.

٤ - على أن المشقة قد لاتكون من العمل نفسه .. ولكن .. من المكلف الذى أرهق نفسه فشدد عليها.

*****

العيد للرافعي

عن العيد يقول الرافعي:

[إنه جمع الأمة في إرادة واحدة . . . على حقيقة عملية هي: إثبات وجودها الروحي في أجل معانيه.

إنه استرواح القوة من جدها . . وإشعار الأمة بأن فيها قدر على تغيير الأيام.

إنه يوم الشعور الواحد في نفوس الجميع . . والكلمة الواحدة في ألسنة الجميع.

إنه تعليم الأمة: كيف تتسع روح الجوار وتمتد . . حتى يرجع البلد العظيم وكأن أهله دار واحدة.

إن الأمة تنشئ لنفسها بالأعياد أياما تعمل عمل القواد العسكريين في قيادة الشعب يقودها كل يوم منها إلى معنى من معاني الانتصار].

ولقد كان للعيد في قلوب سلفنا الصالح في طرف الناس . . فقيل له: لم لا تتوسط الناس في الصفوف؟ فقال: هذا موضع السائل الضعيف!

فلما انصرف صاح قائلا: إلهي نرضيك . . فلعلنا لا نعصيك!

*****

وسطية الإسلام

قالوا: لم تعرف أوربا حقيقة الإسلام . . ومن ثم لم تطب لأدواء الإنسان فتمزق . . ثم انتحر!

أما الإسلام؛ فهو دين الله تعالى . . دين الفطرة . . الذى استجاب لمطالب هذه الفطرة . . حين ربط بين الدين والدنيا . . فاستوعب كل أشواقها المادية والمعنوية . . فكان مفصلا على قدها:

إن الطعام والشراب فى منطق الإسلام مباح . . وهو حلال بذكر اسم الله تعالى عليه . .

وإذن . . فارتباط الحل بالتسمية يجعل نشاطا إنسانيا . . وروحيا . . فى نفس الوقت.

والنشاط الجنسى: يبيحه الإسلام . . على أن يكون حلالا **﴿محصنين غير مسافحين﴾** حتى مع الكتابية . . . على أن يتوخى به الذرية الصالحة **﴿وقدموا لأنفسكم﴾** ثم . . البدء، باسم الله سبحانه . . ومن ثم . . يكون نشاطا إنسانيا . . وروحيا . . والبيع والشراء لابد فيهما من العنصر الأخلاقى . . «**رحم الله امرءا سمحا إذا باع .. سمحا إذا اشترى ..**».

إن الدنيا ـ فى الإسلام ـ مرتبطة بالآخرة . . فمن فصل بينهما . . فأهمل الدنيا . . فهو مُفْرِط . . ومن أهمل الآخرة . . فهو مفَرِّط . .

وكلاهما لا يتمثل حقيقة الإسلام . . . لأنهما معا لم يسيرا على الخط المستقيم.

*****

صدقة الفطر

وضع الإسلام للكسب والبذل منهجا ومقصدا . . من حيث المصادر والموارد. والمقادير والمعايير.

وإذ يحدد الإسلام مصادر الكسب . . ومصادر البذل . . فإن هناك عنصرا فعالا لا صلة له بمقدار الصدقة ولا بمعيارها . . وهو النية التى تجعل للصدقة موقعها سلبا وإيجابا . . ذلك بأنه ـ كما يقول المرحوم الدكتور دراز ـ . . بأنه العنصر الإلهى فى القضية . . الذى يكتشف به المتصدق بنفسه معدن روحه: هل هى علوية سماوية . . أم طينية أرضية؟!

وإذ يشدد الإسلام النكير على الباخلين بأموالهم . . فإنه أشد هجوما على الباخلين بأموال غيرهم . . بمعنى أنه يندد بهذا المرض الخطير الذى يصيب الأغنياء والفقراء على سواء؛ هذا المرض هو: الحقد والحسد.

والذى يسول لك أن تضن لا بمالك . . ولكن بمال غيرك . . فالشحيح هنا يبخل بما عند غيره . . أعنى: بمعنى ـ أو يحاول ـ إن اتصل النعمة إلى مستحقيها من عباد الله الذين هم أيضا عيال الله . . بل إن مشاعر الحقد لتزداد بعد وصول النعمة فعلا . . فهو عندئذ يتمنى أن تزول.

ولقد كان الحسد وما زال عدو الحياة الأول: فهو أول باب من الكفر . . فى السماء . وفى الأرض . حسد إبليس آدم فلم يسجد له . . وحسد الأخ أخاه . . فقتله.

قالوا: تذكر رمضان، بما تحفل به الأسواق من أطعمة اشتهر هو بها . .

ثم لا تقدم له . . ما يستحقه من طاعة! لأن صخب الاحتفالات . . وتراحم برامج التسلية . . يحول بيننا وبين الشعور بهذه الطاعة . . بدليل أننا نسهر . . ثم بعد الأكل الثقيل . . يجىء النوم الثقيل . . فى أفضل أوقات الليل وهى: السحر وما لهذا كان الشهر.

وإنما رمضان: لمزيد من العبودية . . تحببا إلى الله تعالى ولمزيد من الوقت . . للعمل والسعى والكسب . . ولمزيد من الصبر . . تنزها عن العصيان . . إنه باب مفتوح . . ليفر المرء منه إلى ربه . . مستغفرا من ذنبه.

لقد جاء رمضان: لينجو بنا من فضول الطعام بالصوم . . وفضول المنام بالقيام . . وفضول الكلام . . بتلاوة القرآن ولكن الذى حدث: أننا أدينا فيه رسالة الأكل . . والشرب واللهو . . فاستقبلنا مواسم الخير. يعكس ما تُستقبل به ثم نشكو ضيقا فى أرزاقنا . . بينما نحن الذين أعرضنا عن ذكر الله تعالى . . فكان. ما كان . . ثم جاء العيد فاستقبلناه بطرا . . فبدلنا نعمة الله كفرا . . ونحوّل مواسم الخير فنزرعها شرا وطغيانا . . كيف؟!

ألم يقل الله تعالى: **﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى﴾**؟!!

لقد كان هذا تصرف بنى إسرائيل، لقد بطروا . . فوقعوا فى شر أعمالهم . . ولقد سخّروا أقلامهم للسخرية . . فكانت آثارهم صدقة جارية!! . . تلاحقهم باللعنة . . إنها خطة استعمارية إذن وهى: إفراغ - رمضان. وكذلك إفراغ العيد . . إفراغهما من آثارهما . . حتى لا تنشط فى قلوب المؤمنين عزائم الخير.

لقد كان القرآن يتلى فى المسجد كأوامر يومية . . تنفذ فورا . . ولقد كان بناؤه متوضعا . . ولكنه حافل بالعمالقة وهو اليوم: عملاق . . حافل بالأقزام.

لم يكن المسجد استراحة للنوم . . لكنه عنوان اليقظة . . والانطلاق إلى المعارك . . يغتسل فيه المسلمون بالنور . . وبعد قليل يغتسلون بالدماء!!

ومسكين فقير اليوم. كان أخوه . . زمان . . يأوى إلى المسجد . . ليرتاح . . ولكنه اليوم . . يأوى إلى المسجد . . فماذا يرى؟

يرى القناديل . . والزخارف . . التى تحرك أوجاعه! . . فيجدد داخل المسجد أكثر مما فرّ منه خارج المسجد؟! فلم تعد المساجد مثابة العلم . . ولا مرجعا لفهم . . ولا معتصما من زيغ . . وصار القرآن فيها للتطريب . . ومادة لتطريز الحفلات بدءا. وختاما . . مع أن فيه. **﴿كتب عليكم القصاص..﴾**.

وللأسف قد يسمعها ناس . . فلا يطربون . . ثم يطلقون الألسنة اعتراضا . . بعدما التفتوا إعراضًا!!

الحمد لله الذى أعاننى فصمت ورزقنى فأفطرت . .

نحمده تعالى على ما كان . . ونسأله دوام الحمد على ما يكون.

الذوق الإيمانى:

قالوا: لم يتذوق . . من لم يَدْرِ . . ومن لم يدر . . كيف يطيع؟!

إننا فى حاجة إلى ذوق إيمانى . . لا ذوق علمانى . . ذوق روحى . . شفاف . . لا مادى مظلم غليظ . .

قلب حساس . . يعرف لذة التضحية باللذائذ الفانية . . فى سبيل الله . . لا فى سبيل الشهرة . .

قال مؤمن: يرى كلام الله أشرف كلام . . وأمتع كلام. ويرى العز فى طاعة الله . . والذى فى معصيته . ولكن من أين تأتى بهذا الذوق؟

من بطون الكتب، من المؤتمرات، من الدراسات والأبحاث. كل ذلك ممكن .

ولكن: يجب تعميقه بالمجاهدة: فيحس المؤمن ـ صاحب الذوق الإيمانى ـ يحس بأنه يربح فيما يخسر به الآخرون ويخسر فيا يربح فيه الآخرون.

تماما كهذا الذى طعن . . فمات . . فقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: فزت والله. إنه واحد من جيل لم يسبق له مثيل . . جيل تختلف عنده مقاييس الرضا والغضب . . والفقر والغنى . . والنجاح والفشل . . يشفق على عشاق الدنيا. شفقته على ضرير ضل الطريق . . .

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾[1]؟

*****

---

(١) الرعد: ١٩.

[شؤم الخلاف]

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه: اعتكف ﷺ. . ثم خرج على الناس فقال:

«يا أيها الناس: إنها كانت أُبينت لى ليلةُ القدر .. وإنى خرجت لأخبركم بها.. فجاء رجلان يحتقان .معهما الشيطان. فنُسِّيتها..»[2] . . وفى رواية: أنسيتُها)

تمهيد:

مما أدرك الناس من حكمة العرب قولهم:

«خير أولادنا: الأبله الغفول . . ذلك بأنه لشدة حيائه كالأبله: يتغافل . ويتجاوز ويسامح فشبه بالأبله مجازا».

وهكذا كان خلق العفو والتسامح أصيلا فى وجدان أمتنا العربية فلما جاء الإسلام . . كان العفو شرعة ومنهاج حياة. . بل كان هو المقياس فى الحكم للناس. . أو عليهم. وتُعْلن هذه الحقيقة عن نفسها حتى على مستوى الأعراب:

قيل لأعرابى:

مَنْ أكرم الناس عشرة؟ قال:

من إذا قُرب منح وإن بعد مدح. وإن ظلُم صفح وإن ضُويق فسح. . فمن ظفر به فقد أفلح ونجح!

والظفر بهذا اللون من الخلان منتهى آمال الراغبين فى العيش بسلام وأمان. ولك أن تتصور صديقين متشاكسين. . ثم لتقلب الصفحة لتدرك الفرق بينهما وبين أخوين جمع التسامح بينهما كيف تكون الحياة بهما جميلة.

كتب صديق إلى صديق له قائلا: مِثلى هفا . ومثلك عفا. .

ثم يجىء الرد الجميل . . أو التحية بأحسن منها حين أرسل إليه صديقه

---

(1) الرعد ١٩.

(2) رواه مسلم ج٨/ ٦٣ ويحتقان: يطلب كل منهما حقه. ويدعى أنه المحق.

قائلا: ومثلك اعتذر. ومثلى غفر!!

وأين هذه الأخوة التى قالوا عنها: أطرب من الإبل على الحداء والثَّمَل على الغناء .. وأين منها ذلك التلاحى بين الأخوين .. وإلى حدٍّ يذهَب بالبركة .. ذهابا يَعُم.. ولا يُصيب الذين اختلفوا خاصة.

كما يشير الحديث الشريف والذى نحن بصدد التعليق عليه.

ولاحظ تعبير الرسول ﷺ: «... **فجاء رجلان يحتقان**» .. يحتقان: كل يدافع عن نفسه زاعما أن الحق له وحده...

إنهما إذن يحتكان فيتطاير من احتكاكهما شرر ينذر بالخطر.

بل إنهما «يحتقَّان» بالقاف وتلحظ لحرف القاف: شدة وجهرا وجلَبَة كما هو أصلها فى اللغة.. على نحو يعكس شدة التجاذب بين الرجلين .. ولا يستغربن القارئ الكريم هذا الذى نقول.. فقد قرر علماء اللغة أن هناك ارتباطا وثيقا بين صوت الحرف ومعناه: فالحرف يأتى مناسبا للمعنى أو الحدث الذى دل عليه..

فالموقف هنا: شجار .. وتدافع وأنانية .. فجاءت القاف لتبرز لنا هذا الحوار الساخن!

ولأنَّ الأمر هكذا. فَقَدْ .. كان الشيطان معهما حين دخلا .. كان معهما وفى نفس اللحظة .. ولم يتأخر عنهما.. ولِمَ يتأخر وتلك فرصته التى يضرب فيها ضربته .. حين تنتفخ الأوداج .. ويصبح الخصيم مهلهل الشخصية .. رخو الإرادة .. ومن ثم مطية فى يد الشيطان؟!

إن الشيطان صائد ماهر .. يعرف كيف يختار الزمان .. والمكان .. والإنسان فى أسوأ حالاته ليفرق بين الأحبة .. وما أشد الخسران عندئذ.

وأى خسران أشد من أن الأمة كلها .. وإلى يوم القيامة .. وبسبب من هذا الشقاق حرمت من تعيين ليلة القدر...

إثنان يتشاحنان .. فيُذهب الله بالشحناء البركة فى الوقت الذى يُنزل الله تعالى الغيث .. والبركات من السماء والأرض فى ظل من الوداد الجامع .. والذى يرفض الأنانية سبيلا إلى نيل الحقوق .. لتكون الكلمة العليا للإيثار .. هذا الإيثار الذى حمل النبلاء من الصحاب على التسامح .. تاركين إخوانهم

يحوزون الفضل دونهم .. لا عن عجز .. وإنما هو النبل وهى المروءة هلى حد قول أحدهم فى هذا المعنى:

تركتُ لك القصوى لتدرك فضلها

وقلت لهم بينى وبين أخى فرق

ولك يَكْ بى عنها نُكول وإنما

توانيتُ عن حقى . فتم لك الحق

ولا بدلى من أكون مصلياً (١)

إذا كنتُ أهوى أن يكون لك السبق

يريد أن يقول: لقد كنت قادرا على ساحة التنافس أن أسبِقك..

لكننى توانيتُ لتسبق أنت .. إيمانا منى بأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

من حقوق الصفح:

وإذا كنا ننشد الصفح والغفران لتدوم الألفة بين الناس .. فإن لهذا الذى يصفح حقوقا فى عنق المعفو عنه .. وعلى ضوئها تبدأ رحلة الصداقة من جديد:

ومن هذه الحقوق: الكشف عن سبب هفوة الصديق:

والسبب إما: ملل .. أو زلل. كما قال المجربون .. والملول من الإخوان: صحبته ظل غمام. وحُلم منام .. وعلاجه ألا يناقش الحساب .. بل يُترك .. ولأنه ملول فسوف يعود إليك غدا أو بعد غد .. لأن الملل لا يبقيه على حالة واحدة.

وأما صاحب الزلل.. فإن الزلل ينبغى أن يزول .. بحسن تقديرنا لظروف المخطئ.

قيل لخالد بن صفوان: مرّ بك صديقان: فأتاك أحدهما .. وولّى الآخر ..

(١) المصلِّى هو الفرس المسبوق فى الحلبة.

فقال: أتانى من أتى الفضلة وطوانا الآخر لثقته..

ويعنى ذلك: حسنَ تفسير الإقبال والإعراض. وردَّ كل منهما إلى سبب معقول مقبول تُمليه سماحة قلب رحيب .. ومن رحابته أنه وسع الإثنين معا: القريب .. والبعيد .. من حيّاه .. ومن جفاه.

وإذا ندم صاحب الزلة .. فقد وجب الترحيب به نادما .. لأن الندم توبة . ولا ذنب لتائب. ولا يُكلَّف التائب عذرا بل إن الاعتذار نَفسه توبة..

قال الشاعر:

اقْبَل معاذير مــــن يأتيك معتــــذرا	إنْ بَرَّ عندك فيما قال أو فجـرا
فقد أطاعك مَن يُرضيك ظاهــــرهُ	وقد أجَلك مـن يَعصِيك مستترا
واحلُم عن الناس إذ ما كنت مقتدرا	فالسيِّد من يعفو إذا قـــــــدرا

ويظل خلق السماحة يفرض نفسه حتى فى أحلك الظروف .. فإذا لم يتب المسىء .. ولم يعتذر .. فما هو الحكم:

يجيب العلماء: لا يخلو هذا الطراز من حالين:

إما أن يكف أيضا عن الإساءة .. وإذن فالكف إحدى التوبتين .. والإقلاع أحد العذرين.

وإن استمر على إساءته مع رفضه التوبة والاعتذار .. فإذا أمكن استصلاحه.. استُصلح... وإلا فآخر الدواء الكى.

ومن سل سيف البغى أُغمد فى رأسه.

ذلك ما يفيده الحديث الذى معنا .. ولابد فيها من العقاب .. العقاب الذى يكون فتنة تعم .. ولا تستثنى أحدا.

أما بعد: فلا يستغربن القارئ الكريم ما أشرنا إليه آنفا من دلالة الحروف على معانيها..

فهذا هو ما قرره علماء اللغة الذى لاحظوا مثلا:

أن الحاء إذا أتت فى آخر الكلمة: دلت على الاتساع والانتشار مثل: ساح. وباح، وصاح. وشرح. ومرح.

وأن الكلمة المبدوءة بالغين تدل على الغموض. مثل: أغمض غابت الشمس غار الماء. غطى الشيء.

*****

المتقون

وغريزة الترقى

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

تمهيد:

يقولون: كل باب فى الدنيا تمر السعادة به .. ولكن ... قليل هُم الذين يفتحون لها الباب لتدخل!

والآية الكريمة تعين المؤمن .. حتى يمد يده ليفتح الباب .. بالتقوى .. ليجد نفسه فى النهاية أسعد الناس...

وإذ يفرح الماديون بما أتوا من متاع .. من رياش يحجبهم عن رؤية الحق .. ليظلوا خلف الأبواب .. حيارى .. والسعادة منهم على مرمى حجر..

إذا كان الماديون كذلك .. فإن الآية وهى تمضى بالمؤمنين عبر المستقبل الواعد.. لا تحرم عليهم طيبات الدنيا ورفاهيتها .. شريطة ألا تكون فى غاية ذاتها.. فلا بأس من الاستمتاع بمباهج الحياة: باللباس .. يستر العورة، والرياش.. تجمّل الحياة.

فالله سبحانه جميل يحب الجمال . نظيف .. يحب النظافة .. والفرق هائل بين ملحد يستمتع بالدنيا .. جاحدا بالمنعم سبحانه .. وبين مؤمن يستمتع بنفس الدنيا .. راجعا بنعمها إلى واهبها سبحانه وتعالى.

فالله هو الذى أنزل علينا اللباس .. والرياش .. ولم نخترعها نحن ..

---

(١) الأعراف: ٢٦، ٢٧.

وإذن فلنسخرها فيما أراد سبحانه . . لأنه صاحبها . . الذى أراد منا أن نجتازها . . صاعدين إلى غايتنا الأصلية: التقوى . . ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

وما دامت التقوى هى اللباس فهى مفصلة على قدنا . . وهى كاللباس: سابغة . . كاملة . . جميلة . . وقور وافية بالغرض . . ساترة . . وإذن . . فهيا لمنهج الكافى الشافى . . فلا نطلب سواها.

إن الحضارة ليست رياشا . . ليست مجرد أشياء . . ليست أبنية عالية . . بلا جسور تربطها . . وإنما هى منهاج حياة يجعل من الأمة جبهة واحدة . . عنية بمبادئها . . عصية على تسول من غيرها . . مادامت تملك هذا اللباس: السابغ . . الوافى . . الوقور. ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

وتستجيب الآية الكريمة لغريزة الطموح فينا . . فتنادينا لتصعد بنا إلى ما فوق الرياش والأثاث! . . إلى أفق التقوى . . ذلك خير:

ومن خيراته: أنك بالتقوى لا تسعد أنت فحسب . . وإنما تسعد غيرك:

وإلا . . فأين اللباس والرياش تسعد به نفسك . . من التقوى التى تسعد بها غيرك.

إنك فى الحالة الأولى: تنظر إلى المرآة . . فلا ترى إلا نفسك . . لأن طبقة الفضة . . لأن رغباتنا مانعة من رؤية الآخرين . .

وفى الحالة الثانية: تنظر فى الزجاج . . فترى الآخرين . . الذين تفسح لهم فى قلبك . . فإذ أنت سعيد مرتين: بسعادتك . . ثم بإسعاد المؤمنين.

من مظاهر الخيرية:

لا يقصد المتقى إلى الشىء الجديد . . وإنما يستهدف المفيد . . ولأنه متسربل بلباس التقوى . . فهو طليعة الركب دائما؛ لأنه من التقوى فى نعمة سابغة: ففى اللباس: ستر . . وجمال . . وفى التقوى: وقار . . وكمال . .، والجمال أنس . . والكمال هيبة . . ومن مزيجهما يكون المتقون . . هم السعداء حقا . . لأنه فى الوقت الذى يعانى فيه الملحدون من تمزق . . ينجح المتقى فى تشكيل ذاته وفق

مطالب الحق . . ولذلك كان المتقون هم المتحضرين:

يقول تعالى: **﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾**. فهو التقدمى . . وما سواه هو الرجعى

إن المتقين صاعدون إلى أفق الإحسان . . ماضون بدافع من الطموح إلى الثريا: إنهم محسنون: يؤبدون بالإحسان غريزة حب الظهور إنهم يعبدونه تعالى كأنهم يرونه . . شوقا إليه . . أو على الأقل . . كأنه يراهم . . خوفا منه!! وأولئك هم المؤمنون حقا.

ولاحظ أن الآية الكريمة تقدم اللباس . . على الرياش . . الضروريات . . على الكماليات . . أى أنه: لا بأس من الضروريات . . ولكن بعد توفر الأساسيات . . ومن نكد الدنيا أن تقع أمم فريسة لخديعة الماكرين الذين سولوا لها شراء الكماليات . . من مساحيق . . وسلاح . . بينما هى فى حاجة إلى حبة القمح وحبة الدواء.

إنها مؤامرة يراد بها إغراقنا فى ضباب من الغفلة يجعل من الدنيا أكبر همنا ومبلغ علمنا. . ولكن الآية الكريمة تهيب بنا أن نمضى صاعدين . . مسارعين. . متنافسين . . متجاوزين بريق الدنيا . . من أجل ذلك يلفتنا الحق تعالى إلى أهمية العمل للآخرة وما يفرضه من همة صاعدة تتقاضانا أن نسابق إلى الجنة: **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾** [سابقوا] **﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾**.

أما فيما يتعلق بالدنيا . . فلنمض الهوينا . . بلا صراع . . على ما يقول تعالى: **﴿فامشوا فى مناكبها﴾** **﴿فانتشروا فى الأرض﴾**

المتقون هم المحسنون:

إن المتقين لا يعملون الخير فقط. . وإنما يحسنون التعامل مع الآخرين. .

وبهذا الإحسان. . صاروا طليعة الركب الصاعد. . يطلبون الأحسن دائما. . ولا تمل هممهم من الرغبة فى الصعود:

يطلبون: الزوجة. . الأفضل. والعلم. . الأشمل. . والقول. . الأجمل والعمل. .

الأصلح. والتحية . . الأحسن. والكلمة . . الأطيب.

إنهم يذرون غيرهم يشيب . . فتشيب معه خصلتان: الحصر وطول الأمل ثم يحلقون هم فى جو السماء . . يطلبون الدنيا . . ولكنهم يحكمونها بالدين على سنة سليمان عليه السلام والذى حكى عنه بالقرآن:

﴿رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى﴾

المغفرة أولا . . ثم الدنيا بعد ذلك . . ولا ضير.

*****

المتقون

بين العمل .. والمعاملة

وإذ يجيد المتقون صناعة الإحسان فإنهم أحسن ما يكونون فى معاملة الإنسان.. ومن ثم كانوا نعم الإخوان .. على ريب الزمان.

يقول الشاعر:

أخلاء الزمان همو كثير ... ولكن فى البلاء همو قليل
فلا تغررك خُلة من تؤاخى ... فمالك عند نائبة خليل
وكل أخ يقول أنا وفىّ ... ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خلٍّ له حسب ودين ... فذاك لما يقول هو الفعول

ويقول آخر:

كم من أخ لست تنكره ... ما دمت من دنياك فى يسر
متصنع لك فى مودته ... يلقاك بالترحاب والبشر
فإذا عدا والدهر ذو عِيرَ ... دهر عليك..عدا مع الدهر
فارفض بإجمال مودة من ... يَقْلى المُقلّ ويعشق المثرى
وعليك من حالاه واحدة ... فى العسر إما كنت واليسر

ولقد كان المتقى هو الصديق .. ذو الحسب والدين .. ومن يثبت على حال واحدة معك .. فى السراء والضراء لا تزيد مودته لك إذا استغنيت عنه .. ولا تنقض إذا احتجت إليه..

أعداء الشيطان:

وهذا ما أغاظ الشيطان منهم .. ومنهم بالذات .. من حيث كانوا سلاح

القدر المحبط كيده..

من أجل ذلك تجيء الآية التالية محذرة منه:

﴿يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة...﴾.

ولا تقول الآية الكريمة: يا أيها الذين آمنوا.. ولكنها تقول: **﴿يا بنى آدم﴾**..

يا سكان الكرة الأرضية جميعا.. مسلمين.. وغير مسلمين.. يا كل البشر: اتحدوا.. فى مواجهة عدوكم المشترك.. الشيطان.. إنه عدوكم جميعا انسوا الثأر بينكم.. واذكروا ثأركم معه.. لقد أخرج أبويكم من الجنة..

ونحن جميعا بأن نخرجه من بيننا مذؤوما مدحورا.. وبعد ذلك.. لكم دينكم.. ولى دين.

أما بعد:

فإن المعركة مع الشيطان متعددة الجبهات.. وواجبك أيها المسلم أن تأخذ وضع الاستعداد لخوض هذه المعركة الكبرى.. والتى لا تنتصر فى مرحلة منها إلا لتخوض مع الشيطان مرحلة أخرى كما أشار علماؤنا: [فاحذر الشيطان على عقيدتك.. أن يفسدها بالآراء.. وعلى عبادتك.. أن يفسدها بالرياء.. وعلى عملك.. أن يفسده بالأهواء.. وعلى علمك.. أن يفسده بالادعاء.. وعلى عبوديتك.. أن يفسدها بالكبرياء.. وعلى خلقك.. أن يفسده بالغرور.. وعلى استقامتك.. أن يفسدها بالطمع].

*****

إذا قلت لصاحبك يوما: أنا آكل لأن رسول الله ﷺ كان يأكل . . وأنا أشرب لأنه كان يشرب.

إذا قلت ذلك . . قلت لك: أنت تأكل وتشرب استجابة لحاجة تلح عليك. . وما دفَعَتْ إليه الحاجةُ لا يعتد به . . . ولكن الموقف الأمثل . كيف تأكل؟ كيف تشرب؟ فالسنَّة أن تتبعه ﷺ فى كيفية الأكل والشرب.

أما ما دفَعَت إليه الحاجة فلا سنة فيه . . فأنت تأكل لحاجتك إلى الأكل . . والرسول ﷺ كان يأكل لحاجته إلى الطعام أيضا . . وإذن فلا سنَّة هنا.

وفيما يتعلق بالجوع . . نقول أيضا: إنك تجوع ولكن لماذا؟

لقد كان ﷺ يصوم . . يجوع . . ولكن لماذا ؟والإجابة تحملها الآية الكريمة:

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾.

إذن فهو الجوع الذى نتغيّاَ به التقوى . . فإذا لك تكن تقْوى . . فليس لنا من صيامنا إلا الجوع والعطش . . ولكن ما معنى أن نستهدف بالجوع التقوى. . .؟

وبتعبير آخر: متى يكون لصيامنا قيمة عند الله تعالى؟

والجواب: إن الله تعالى يصف المتقين بأنهم الذين ينفقون ويعفون ويحسنون. . فإذا اكتسبنا بالصوم ملكة التقوى . . ثم ظهرت آثارها علينا. . فكنا من المتقين بالإنفاق . . تحررا من عادة الشح . . وبالعفو تحررا من شهوة الانتقام. .

ثم بالإحسان . . فرارا من سيئات عاداتنا . . وما أكثرها. .

وما أكثر الجائعين . . العطاش . . الذين تستعبدهم تقاليد وأعراف وعادات. . تخلد بهم إلى الأرض . . فلا يستطيعون التحليق فى آفاق التقوى. .

وإذن فنحن نصوم . . ولكن لابد أن نتحسس أنفسنا . . هل تقدَّمت بالصوم على الطريق صاعدة إلى أعلى . . أم ما زالت تقيدها أغلال من العادات. فإن كان . . فبها . . وإلا . . فلنحاول أن نتحرر من هوانا . . لنصل فى النهاية إلى مبتغانا.

إن العادة طبيعة ثانية . . والتخلص منها شاق ومكلِّف . . ولأن الأمر كذلك . . فقد أعاننا الإسلام بتشريعاته السامية على التخلص من إسارها:

خذ مثلا هذا المجتمع القبلى زمن البعثة النبوية . . وما كان له من سلطان يحترم السن إلى درجة التقديس . . ولكن الإسلام . . يريد اقتلاع هذا الولاء الطاغى . . والذى قد يشكل عقبة على طريق الدعوة الصاعدة . .

ومن أجل ذلك يُنبِّ أسامة رضى الله عنه قائدا للجيش . . ولاحظ أن فى الجيش أبا بكر رضى الله عنه يودع المركب راجلا وأسامة راكب . . وفى الجيش كبار الصحابة ومنهم عمر رضى الله عنه . .

ثم إن أبا بكر يستأذن . . يستأذن من؟! يستأذن الفتى أسامة ليبقى له عمر مستشارا . . فيأذن بطبيعة الحال.

كل هذه الإجراءات كان من أهدافها القضاء على العادة . . عادة فرضها النظام القبلى الغارب . .

ولا ننسى كيف قضى الإسلام على عادة التبنى: فزيد يحب زينب رضى الله عنهما . . ثم يتزوجها . . ثم تتمرد عليه . . يتم ذلك كله . . وفى تضاعيفه تتراجع عادة التبنى رويدا . . هذه العادة التى ما كان لها أن تتوارى إلا بالقدوة المعينة على التخلص من سلبيات، ما كان لها أن تزول إلا بالقدوة . . ثم بالفهم العميق لغايات العبادات . . ومنها الصيام . . الذى جاء ليحررنا بالجوع من شهوة البدن وصولا بنا إلى التقوى . . إلى التحرر من عادات ثم تنطلق الإرادة بعدها على طريق التعمير . . فتحفر الأرض . . ويعم السلام.

يقولون: إن الطائر المحمول جوا . . يسقط خلاياه القديمة والفارغة. يتخلص

منها وهو يحلق فى جو السماء . . ليظل خفيف الوزن والحركة . . وأقل استهلاكا للطاقة . ونحن البشر مأمورون أن نتعلم . . ومن الطير . .

يقول تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

ومن دروس الطير التى يجب أن نعيهَا: ضرورة التخلص من عادات قديمة تقيد خطانا . . وبخاصة إذا حانت فرصة التخلص منها على مدى ثلاثين يوما هى شهر رمضان . . الذى يمثل ربيع الأمة التى تبحث عن الخلاص من قيودها . . فإن فعلت فبها ونعمت . . وإلا . . فقد ذهبت فرصة الخلاص ولن تعود!

أجل . . إنه الربيع الطلق يأتينا ضاحكا فى محاولة لكسر عادات تحكمت فينا . . وقبل أن تصير بالاستمرار إدمانا . .

أى أنه فرصة ذهبية لمراجعة النفس فلعلها أن تفيق . . قبل أن تفرض على نفسها الإدمان . . الإدمان الذى هو انسحاب . . بل هروب من الواقع . . بسبب العجز عن تغييره . . والفشل فى العثور على البديل . .

[عادة التدخين]:

وعادة التدخين مضرة جدا . . للمدخن . . ولمن كان معه! . . بل إن ضررها من السعة والشمول بحيث لا ينجو أحد من أخطاره.

من الناحية الاجتماعية:

فله رائحة كريهة . . تؤذى الآخرين ـ بل وتؤذى الملائكة الموكلين بنا أيضا ـ وفى هذا من فتور العلاقات الاجتماعية ما فيه.

ومن الناحية الاقتصادية:

ضَيَاع للمال بلا طائل.

ولو تصورت قرية كبيرة تريد بناء مدرسة مثلا . . لتكفل المدخنون وحدهم ـ لو أقلعوا ـ ببنائها . . ولكن فريقا من الناس يفضلون أن يكونوا من المدخنين . . بدل أن يكونوا من المصلحين!

وهم تلاميذ فى مدرسة أشار إليها شيخنا الغزالى حين قال يوما: إن أحدهم ليسره أن يُرى خارجا من خمارة . . على أن يرى خارجا من بيت من بيوت الله؟

وهؤلاء المدخنون يسعدهم أن يطلقوا أموالهم دخانا فى الهواء . . بدل أن يرفعوها لتصعد بناء فى السماء!

أما من الناحية الصحية:

فقد قرر الأطباء المتخصصون أن كل دقيقتين تدخين . . تحرق من عمرك دقيقة. . وما ظنك بمدخن يحرق ماله . . وبيده؟ إنه مجنون. .

فإذا تصورت أنه يحرق بثمن العلبة كبده . . ومع سبق الإصرار والترصد . . إذا تصورت هذا . . بدا لك حجم المأساة. .

ولقد قال الأطباء أيضا: إن ضرر التدخين على من يجلس مع المدخن أفدح أثرا.

ذلك بأن المدخن يأخذ شهيقا وزفيرا . . ولكن الجالس معه يعب وهو لا يدرى. . لا يدرى أن هذا المدخن يقتله. . ولكن بغير سكين!

إنه القتل البطىء . . المنتهى بالمدمن إلى: الجلطة . . أو الذبحة . . أو السرطان . . أو تليف الكبد!

ويبقى أن يعتبر المخدوعون . . أن يعتبروا بما تشاهده أعينهم من فوارق بين سحنة المدخن . . وسحنة غيره ممن لا يدخن . فلسوف يرى الفرق واضحا . . ومن لم يعتبر بما رأى بعينيه . . فلن يعتبر بما سمع بأذنيه. .

*****

رأى الفاقهين

أشياء كثيرة:

وفى كتابه الكريم يقول الله سبحانه وتعالى محددا مهمة النبى ﷺ: ﴿**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**﴾.

والخبائث: كما يقول الدكتور عبد الصبور شاهين: اسم عام يشمل أشياء كثيرة منها ما وردت به النصوص .. ومنها ما سوف يظهر فيما بعد .. ويرى الإنسان بفطرته السوية أنه خبيث.. فما وردت به النصوص.. يمكن أن يكون بمثابة العينات التى تعرف بها الخبائث فى أشكالها المختلفة.

والسؤال البديهى عن التدخين أهو طيب أم خبيث؟

والإجابة على كل لسان: أنه خبيث .. بل هو أنكر الخبائث.

فهو إذن محرم بالنص القرآنى دون تردد .. ويكفى أنه لا يوجد مدمن مخدرات بكل أنواعها إلا إذا كان مدخنا أصلا!

أضف إلى ذلك ما ثبت من أن التبغ الأخضر يتم إنضاجه فى نقيع من عصائر الفاكهة التى تعتق على مدى زمنى بين سنتين ونصف وثلاث سنوات .. ولا تفتح أوانى التبغ وأوعيته إلا بعد التشبع الكامل بالكحول والتغير الكامل للون .. ومن ثم يصبح الدخان مزيجا من الألياف الحاملة لمادة النيكوتين والمشبعة بالكحول .. وهى حقيقة علمية تعرفها الصنعة.

وإذا علمنا أن تعتيق الخمر لا يحتاج إلى هذه المدة .. فإن الأمر فى الدخان يكون أشد تأثيرا وكحولية وهذا هو السر الذى يفسر استمرار اشتعال السيجارة بمجرد الإشعال.

وإذا شرب الخمر يحدث تأثيره رغم مروره بالجهاز الهضمى .. فإن شرب الدخان يصل تأثيره إلى الدورة الدموية مباشرة عبر حويصلات الرئتين .. فيدمر كل ما يصادف فى طريقه.

والعنصر المشترك بينهما هو الكحول . . وهو سبب تحريم الخمر . . والقاعدة تقول: «ما أسكر كثيره فقليله حرام».

والغريب أن صناعة السجائر أخفت علاقة الدخان بالكحول حفاظا على استمرار هذه التجارة المحرمة التى تفتك بالملايين من الأبرياء . . وبناء على ذلك يصبح النص المحرم للخمر هو ذاته النص المحرم للتدخين دون تردد أيضا!!.

ورغم هذه الأدلة القاطعة التى لا تقبل الشك إلا أننا نعذر السابقين الذين حكموا بأن التدخين مكروه على أساس اجتهاد ساذج قالوا فيه: حرمت الخمر لأنها مسكرة . . وحرمت المخدرات لأنه مغيبة. . وأما التدخين فهو لا يسكر ولا يغيب . . فهو بين بين . . أى فى منزلة بين الحلال والحرام . . فهو إذن مكروه.

وهكذا مضى العامة وراء هذا الاستنباط المضلل . . يقيمون على ما يكره الله لهم طوال حياتهم . . ومن عجب أنهم يكارهون الله فى كل لحظة . . ويزعمون أنهم يحبونه ويرجون مغفرته.

وقد تكون دوافع الحكم بالكراهة ذات علاقة بالمجاملة . . أو لدفع الحرج عن المدخنين . . أو لعموم البلوى . . أو لتمكين الدولة من جباية الملايين من رسم الدخان . . لتنفق المليارات فى مقاومة آثاره المدمرة فى صحة الناس . . وفى حياة المجتمع!!

*****

عاداتنا
ومشكلة انفصال العلم عن العمل

مشكلة المسلمين اليوم هى: انفصال العلم عن العمل .. وهو ما أشار إليه إبراهيم بن أدهم رحمه الله عندما سئل: لماذا ندعو فلا يستجاب لنا؟.. وقد تخلص جوابه فى أننا عرفنا الجنة .. ثم لم نستعد لها .. وعرفنا النار وأيضا .. لم نفر منها!! عرفنا عداوة الشيطان .. وسار عنا فى هواه .. وعرفنا الخير .. ولم نسابق إليه..

وبذلك انفصل العلم عن العمل .. فكان ما كان من تأخر وخذلان.

وفى دراسة علمية عن التدخين وآثاره .. تبين أن تسعين فى المائة من المدخنين يعرفون .. بل يعترفون بأضرار التدخين الجسيمة .. ومع ذلك فهم مستمرون فى ممارسة هوايتهم المفضلة .. رافضين الإقلاع عن هذه العادة الذميمة.

بل إنهم ليعدون التدخين مظهرا من مظاهر الوجاهة الاجتماعية!

[شىء محير]:

وقد استغلت شركات السجائر هذه النزعة .. فواصلت حملتها فى الضغط على أمزجة الناس حتى يظلوا أسارى بضاعتها الرائجة .. مع علمها اليقينى بأضرار التدخين..

وفى تعليق لأحد الباحثين قال:

«فى حديث نشر فى الأهرام: قال السيد المهندس رئيس الشركة المنتجة للسجائر فى مصر: إن شركته تدعم التأمين الصحى بمبلغ ٢٠٠ مليون جنيه، وتدخل خزينة الدولة كل عام ما يقرب من مليارين و ٧٠٠ مليون جنيه من ضرائب المبيعات والأرباح التجارية ورسوم الجمارك، وأن شركته تنتج ما يصل إلى ٥٢ مليار سيجارة سنويا كى توفر احتياجات المدخنين!!

أما أعجب ما جاء على لسان سيادته فهو: أن شركته لا تشجع على التدخين!

وقال أن ليس لديه مانع فى أن يكتب على علبة السجائر: التدخين سبب مباشر فى الإصابة بالأمراض السرطانية، لكنه تدارك الأمر على الفور وقال (محذرا) لكن من المهم أن نأخذ فى الاعتبار أيضا تأثير مثل هذا التحذير على اقتصاديات صناعة السجائر التى تبلغ قيمة مبيعاتها فى مصر ثلاثة مليارات وسبعمائة مليون جنيه فى السنة. يخص الدولة ٧٠٪ من هذه القيمة إذ تبلغ حصتها من العلب التى تباع بمبلغ ١٥٠ قرشا ١١٩ قرشا.

لقد سألت نفسى بعد قراءة هدا الحديث.. هل يجوز أن تقبل شركة مملوكة للدولة أن تحقق هذه الأرباح الطائلة من خلال إنتاج سلعة تدمر صحة المواطنين (مدخنين وغير مدخنين) وتنهكهم بدنيا واقتصاديا؟

هل يصبح تحقيق الربح الوفير هو المعيار الوحيد للحكم على سلعة ما بأنها مهمة أو غير مهمة؟ فإذا كان ذلك فتجارة المخدرات هى الأخرى تحقق أرباحا طائلة، ولا أظن أن من يتاجرون فى المخدرات لديهم أى مانع فى أن يدخلوا خزينة الدولة جانبا من أرباحهم على صورة ضريبة مبيعات وأرباح تجارية وحتى رسوم جمارك.

إن ضحايا التدخين فى العالم الثالث هم فى الغالب من الفقراء والمعوذين والمعدمين الذين لا يجدون فى الغالب ما يسد رمقهم.. أما موقف الدولة فى هذا الموضوع فهو أيضا متناقض فالدولة دائما هى الأم والأب اللذان يحافظان على صحة الشعب وعلى قدراته والدولة هى التى تشرع قوانين حظر التدخين فى المواصلات والأماكن المغلقة وهى أيضا فى النهاية من تقبل الحصول على أرباح هذه السلعة الخطرة المدمرة للصحة، لكنها والحق يقال تخصص جزءا من هذه الأرباح لعلاجهم.

الحملة مستمرة:

رصدت شركة سجاير أمريكية جائزة هى: رحلة إلى أجمل مكان فى أمريكا.

لكل من يتقدم بأعقاب سجاير لخمس علب من إنتاجها؟!!

وتأمل المكر المبيت:

١ ـ شراء خمس علب . . يساوى رحلة إلى أمريكا؟!

٢ ـ ونقول نعم . . لأن الشركة تخطط لهدف أكبر: فمن شرب العلب الخمس. . سوف يصبح مدمنا . . وإذا أجاز الشرع الانتفاع ببعض ما يضر كالسم مثلا دواء للمريض. . فإن قليل الدخان ككثيره . . داع إلى الإدمان ثم إنها خمس علب . . خمس رضعات مشبعات ليكون أخا لكل مدخن . . من الرضاعة؟؟!!

وإذن . . فالكاسب هو الشركة التى تستقبل ملايين من المدخنين الجدد على مستوى العالم كله. فضلا عما ينتظر هؤلاء السياح الجدد الأغرار من فنون الكيد الخبيث!

إن إفساد الشباب والشابات أهم عندهم من باهظ النفقات.

*****

وبناء على ذلك يجب أن يتذكر المدخن أن المسلم الحقيقى هو الخاضع لأمر الله تعالى .. المنفذ لمنهجه .. المستسلم لشريعته .. وليس هو المنقاد لغريزته .. ولا هو المستسلم لسيجارته!.

يجب أن يتذكر المدخن.. والكلام هنا على لسان الدكتور محمد الأحمدى أبو النور. الأستاذ بجامعة الأزهر. أنه يقول دائما لربه ﴿**إياك نعبد**﴾ ومن ثم لابد وأن يكون فعله مصدقا لقوله، وأن يكون سلوكه منطقيا مع نفسه .. وألا يكون إذن عبدا لعادة، أو مسترقا لشهوة، أو أسير لمزاج.

يجب أن يتذكر المدخن أن إيمانه متوقف فى تحقيقه وفى كماله على أن يكون «مزاجه» تبعا لما جاء به رسوله الكريم ونبيه الصادق الأمين.

وقد قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه لما جئت به**» ..

فسل نفسك أيها المدخن قبل أن تأخذ نفسا من معشوقتك السيجارة: هل هذا الذى تحرق به المال.. وتهلك به الجسد .. وتفنى به العمر مما يرضى الله ورسوله؟!

إن من حسن إسلام المرء أن يترك ما لا يعنيه أن يفعله من جهة الشرع لا من جهة الطبع.

فقد حدثنا الرسول الكريم ﷺ أنه: «**لا ضرر ولا ضرار**».

حذار أيها المدخن أن تقول أننى أصبحت مدمنا!!. فما زلت ذا إرادة .. أو ليس كذلك؟!

دعنى أهمس فى أذنك بما قرأته أخيرا عن صعوبة الإقلاع عن التدخين .. وكيف أنها تتمثل فى حاجة الجسم إلى مادة النيكوتين الموجودة فى السيجارة .. والتى يتعود عليها خاصة مع إدمان التدخين .. فإذا كنت قوى الإرادة فإنك تستطيع التغلب على ذلك إذا صبرت وتحملت لمدة أسبوع واحد فقط ما تشعر به

من عذاب فراق السيجارة .. إنك بعد ذلك ستشعر بلذة الانتصار .. وإن جسمك قد بدأ يفقد تدريجيا حاجته إلى النيكوتين .. ثم تبدأ فى التعود على عدم التدخين .. أما إذا كنت لا تستطيع الإقلاع عن التدخين دفعة واحدة .. فإن أمامك بديلا آخر هو ضرورة تغيير سلوكك تجاه السيجارة .. خفف منها تدريجيا.

وهذا حل نفسى يعتمد على قوى الإرادة لمن كان ذا عزم وتصميم .. وهو أيضا يطرح البديل أمام من يكون ضعيف الإرادة واهن الهزيمة.

بيد أن هذا وذاك يذكرنى بما شرع الله تعالى للمسلم شهرا كاملا للصوم .. يمتنع فيه المرء باختياره عن كل مشتهياته من مطلع الفجر إلى مغرب الشمس .. ومن ذلك السيجارة .. فإذا كان الأسبوع يكفى صاحب الإرادة القوية .. فإن فى الشهر علاجا شاملا لمختلف الأنماط .. من كان قوى الإرادة ومن كان ضعيفها.

وإذا أحيا المسلمون إلى جوار هذا سنة نبيهم فى صوم الإثنين والخميس من كل أسبوع. فإن فى ذلك عمليا غير مباشر لعادة التدخين .. كما أن فيه عونا للمؤمنين على أن يقلعوا عن سوء العادة .. وعلى أن يقوى ما لديهم من عزم ومن إرادة. وأخيرا بقى أن تعرف عزيزى القارئ أن الدكتور أحمد عبد الكريم الباحث بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية أكد فى دراسة علمية عن التدخين أن ٩١٪ من المدخنين يعترفون بأضرار السيجارة .. ومع ذلك يرفضون الإقلاع عن التدخين!!.

أسارى الوهم:

انطلق الجندى الأسير هاربا من محبسه .. ولدى الباب .. أبصر دراجة بخارية .. فانطلق بها يسابق الريح .. وفى الطريق .. تذكر أنه ما ركب من قبل دراجة بخارية .. وعندئذ .. فقط .. سقط بدراجته فى الحفرة!

لقد كان فى كيان الأسير طاقة مدخرة .. لا تظهر إلى فى المواقف الحرجة .. وقد عاش سعيدا لحظاته الأولى متوهما أنه خبير فى القيادة .. فلما صحا من حلم يقظته .. سقط.

فإذا توهم شارب اللفافة أن إقلاعه عنها مستحيل .. فلنحارب الوهم بالوهم.. بتو هم أننا قادرون على الإقلاع .. تماما .. كما نحارب جراثيم المرض بحفنة جراثيم من نفس النوع!!

وكان المرحوم الشيخ الخضرى مريضا بوهم أن ثعبانا فى بطنه .. وقد عجز الأطباء عن شفائه من هذا الوهم القاتل .. إلا طبيبا واحدا: سقاه شربة .. ثم وضع له فى الحمام ثعبانا ميتا.

ولما رآه بعينه بعد قضاء حاجته شفى بإذن الله على يد الطبيب الذى أخرج الثعبان من رأسه .. لا من معدته!!

واجب الداعية:

واجب الداعية ألا يدخل فى جدال مع المدخن لحظة التدخين .. لأنه مفتون بلفافته.. منبهر بها.

وانتظر حتى تذهب السكرة .. وتهجم الفكرة، انتظر حتى يضيق صدره .. حتى «يسعل» وعندئذ قل كلمتك! لتكون أنت .. ونفسه .. عليه!

وهذا درس من دروس القرآن الكريم.

فنحن مأمورون بالإصلاح أوّلا بين المتقاتلين وفض الاشتباك بينهما...فإذا تحقق ذلك .. أمكن التفاهم .. وبلا تصادم.كذلك .. ينبغى أن نتحين الفرصة لنقول الكلمة فى ميقاتها.

[من شواهد الواقع]

وبين أيدينا آية نمر عليها .. ونحن معرضون: فالرضيع .. يكون اللبن أحب إليه من كل ما فى الدنيا .. ومع صغر سنه .. يعافه .. ويُفطم!!

أفلا يكون المدخن الكبير أقدر على اتخاذ قرار سبق أن اتخذه هو شخصيا .. يوم أن رضى بالفطام.

[وأدلة من التاريخ]:

يقولون: إن الواهم يتخيل فى الهواء قصورا..والمريض نفسيا .. يحاول أن

يبنيها . . ويجيئ الطبيب . . ليقبض الإيجار.

وهى لمحة ساخرة للذين يعيشون على الأوهام . . غير قادرين على اتخاذ القرار الحاسم . . ودون هؤلاء . . تجود برواد كانوا رجالا فى اللحظات الحرجة . . فأنقذوا أنفسهم من البوار.

كان القائد «بسمارك» مدمنا، يشعل السيجارة من السيجارة. . وفى معركة ما بقيت له واحدة فقط . . فأخرها للحظة الحاسمة . . ولكن لما غابت اللحظة الحاسمة . . ولم تجيئ بعد أسبوع. . فما كان منه إلا أن اتخذ قرار الإقلاع عن التدخين . . ورمى بالسيجارة متأبيا أن يعلق عمره على سيجارة!

الصوم فى البستان ... صعب!

جميل أن تشدد الدولة عقوبة المتلاعبين بالأغذية والملابس«والسجاير».

وأجمل منه أن تكون العقوبة أشد للمتلاعبين بأعراض اللابسين «المدخنين»!

فأعراض الناس لاشك أهم من لقمة الخبز . . ونفثة الهواء.

وصور الاعتداء على أعراض الناس غنية عن التعريف لكن الذى يحتاج إلى التعريف هو انتشار هذه الموجة من العدوان الذى يرجع فى بعض أسبابه ضعف الرادع الذى توخى به الإسلام علاج النفوس فرارا من هذا الداء الوبيل.

وليس الحديث هنا عن مسؤولية الحكومة وحدها. . بقدر ما هو بيان للمسؤولية الفردية فى هذا المجال . . التى تتضح فيما نشرته (الأخبار) عن الشبان الخمسة الذين اختطفوا امرأة من صديقها! فى سجوة الليل . . وفى وقت عملهما الرسمى.

ولما نجح رجال الأمن فى القبض عليهم طالب أحدهم بالزواج منها نظير دفع ألف جنيه؟! ورفض ولى أمرها (الشهم) ألا يكون (المعلوم) (ولا أقول المهر) أقل من خمسة آلاف! أى أنه يوافق على كل ما يحدث من حيث المبدأ . . ولا خلاف بينه وبين هذا الذى اعتدى على عرضه إلا فى حجم العمولة . . والخلاف إذن لفظى كما يقول علماؤنا.

وهنا ندرك على الفور: أن ما حدث نتيجة طبيعية لظروف غير طبيعية.. أهملت فيها الفتاة .. وولى أمرها .. والشباب مسؤولياتهم .. فكان ما كان مما لست أذكره! لقد سمحت الفتاة لنفسها أن تصاحب صديقها! فى رحلة مشبوهة فى سجوة الليل!

مأساة التربية القاصرة

حين يبتعد الإنسان عن دائرة الضوء .. ويؤثر العيش بين أحراش الغابة .. فلا يلومن إلا نفسه .. وليس هناك ذئب أولى من ذئب بهذه الفريسة التى أسلمت نفسها لقمة سائغة!

ولا يقل عنها جرما ولى أمرها الذى يبيعها فى سوق النخاسة بضاعة مزجاة. بل أنه ليقف بنفسيته المريضة من وراء مأساة كانت ثمرة تربيته القاصرة، وحين يساوم شابا اعتدى على عرضه فإنه يقضى على البقية الباقية من إنسانيتها .. وكان من الممكن أن تستأنف الحياة مرة أخرى طاهرة نظيفة.

ثم .. أليس من الجائز أن يوافق الشاب ويدفع الخمسة آلاف المطلوبة متضامنا سرا .. أو جهرا!! مع رفاقه لتصير الفتاة ملك يمينهم جميعا حينا من الدهر.. وبعد أن يعتصروا رحيق الزهرة لا يبقى منها إلا شوك يدمى ضمير الأب .. إذا كان قد بقى له ضمير؟!

ويرحم الله أجدادنا .. لقد كانوا يحرمون زواج بناتهم من كل شاعر شبب بهن وتغنى بمحاسنهن .. فيعصمون كريمتهم حتى لا تعيش فى ظل ماجن لا يرعى حرمة البيوت.

ولم يكن يشفع لهم أنهم يتخيلون .. ولا يرون .. فما لأحفادهم اليوم لا يحسون؟ أنهم يشاهدون بأعينهم حرمتهم تحت النعال ... ولا يستحون .. بل ويساومون.. وإذا قرئ عليهم القرآن مؤكدا ضرورة القصاص حفاظا على الحياة وتوفيرا للأمن إذا هم ينغضون رؤوسهم .. ثم ساروا فى طغيانهم يعمهون!

إن جريمة المهد للمعصية أشد أثرا من جريمة شاب غافل يرى اللحم المعروض فتنهار مقاومته.. وواجبنا إزاء هذا الشباب أن نستعصم بمعنى الإيمان فيه لعله

يستقيم . . وأن نفتح لهم كتاب تاريخنا ليروا بأنفسهم بين سطوره أكرم من هذه الصورة التى وقعت . . وأن فطرتهم العربية الإسلامية ترفض هذا المسلك المعيب.

مروءة .. رجل مشرك

ولله در «عثمان بن طلحة» . . الشاب العربى الذى وضعته الأقدار فى نفس الموقف . . فما غدر ولا خان:

التقى الفتى «عثمان»ـ وهو مشرك ـ بأم سلمة رضى الله عنها فى طريقها إلى زوجها «أبو سلمة» بالمدينة . . ورغم وحشة الطريق . . ورغم طبيعة الشرك التى تسول له أن ينتقم من الدين الجديد فى شخص هذه المرأة . . ومع قدرته على العدوان فى صحراء واسعة . . لكنه لم يفعل . . وإذا فاته الإيمان . . فلم تفته نخوة العروبة . . وإحساس العربى الأصيل بأنه له أختا . . وأما . . وبنتا ولا يحب لهن ذلك؟!

وارتفع الفتى إلى مستوى مسؤوليته وأقسم ألا يتركها تمضى إلى زوجها وحيدة. . وكان أمره عجبا: إذا أرادت أم سلمة أن تركب . . أو تنزل من فوق بعيرها . . ابتعد عنها فى ظل شجرة . . ثم عاد ليستأنف المسير بعد أن تكون قد استوت على ظهر البعير . . وتوجب المرأة هامته بهذه الشهادة الكريمة:

والله ما رأيت صاحبا كان أكرم من عثمان بن طلحة. وعفة . . أم سلمة.

ولقد أسلم عثمان بعد ذلك فى صلح الحديبية . . وكأنما رأى فى أم سلمة معانى فى الوفاء والصبر . . من صنع الإسلام فجذبته إليه جواذب استقرت به على حقيقة التوحيد.

ولابد أن نقول هنا: أن شخصية أم سلمة . . وعفتها . . وسترها ما أمر الله به أن يستر . . كان له دخل فى وأد نوايا العدوان والاختطاف!!.

ونقول هنا: نعم . . ولهذا كانت النهاية طبيعية لظروف أيضًا كانت طبيعية، ومن حق الشباب علينا أن نهيئ له مثل هذه البيئة الطاهرة . . فلنزح من طريقة كل متبرجة بزينة. . كل أغنية وركة تثير نوازعه. أما أن تبقى البيئة على ما هى عليه: فتنة. . وإثارة ثم نقول له: عليك بالصوم . . فإن الأمر حينئذ يصبح عصيا على الأمثال . . لأن الصوم فى البستان . . صعب . . وصعب جداً.

من أدب الضيافة

عندما دعى الحكيم إلى الطعام فى شهر رمضان: قال للداعى:

أجيبك بثلاثة شروط: ألا تتكلف . . ولا تخون . . ولا تجور.

قال الداعى: وما التكليف؟ قال: أن تتكلف بما ليس لديك.

قال: وما الخيانة؟ قال: أن تبخل بما عندك . ولا تقربه لضيفك.

قال: فما الجور؟ قال: أن تجور على عيالك. وتعطى ضيفك.

وهكذا . . يلفت نظر الحكيم نظر المضيف . . وأنظارنا كذلك . . إلى أدب من أدب الضيافة بعامة . والضيافة فى شهر الصيام بخاصة . . والتى تتلخص فى التحرر من عادة الإسراف . . والتقتير ليكون حضور الضيف عيدًا يسعد بنا . . ونسعد به. يسعد بنا: لأننا لم ندخر وسعًا فى إكرامه. ونسعد به: لأنه لم يكلفنا ما لا نطيق.

وينطلق الحكيم هنا من تصوره لروح رمضان الجانحة إلى التجمل . . . والبساطة فى تناول متع الدنيا . . حتى لا نترف الأبدان . ثم نتلف الإيمان!!.

لقد أتاح الله تعالى لنا فرصة الصيام تحريرًا لإرادتنا . . من عبودية الموائد التى نتفتت فيها . . وبخاصة فى رمضان.

بالإصرار على أن تظل الروح هزيلة بينما يسمن البدن . . ويترهل!

قيد العادات:

إن قيد العادات التى ألزمنا بها أنفسنا ظلمًا.

وهى قصة ذلك الرجل الذى دخل «المسرح» فوجده خاليًا إلا من رجل يلبس «طربوشًا».

فأبى إلا أن يجلس وراءه. طالبًا منه أن ينحى الطربوش جانبًا . . حتى يرى المسرحية.

يفعل هذا بينما المسرح براح بين يديه ومن خلفه .. إنه واحد ممن يقيدون أنفسهم .. ثم يطلبون الفكاك .. بينما المفتاح فى أيديهم.

وهى قصة ذلك الذى قرر ألا يزور أحدًا إلا إذا دخل عليه ولو بحجر!!.

وطبق هذه العادة: لا يزورك فى الحرم.. لتجمع بين الحسنيين .. رؤية الكعبة .. والأنس بصاحبك .. بل يزورك فى البيت حاجبا عنك هذا الشرف .. من أجل هدية لا تساوى ملء قبضتك ترابًا! وهو هو نفسه الذى قد يشتاق إلى قريبه .. ثم يجد نفسه أمام بابه يومًا .. فلا يدخل ليصل رحمه .. لأنه قرر ألا يدخل إلا بالهدية .. إلا بالقيد وكم من دنيانا من المضحكات .. ولكنه ضحك كالبكا .

*****

من آثار صدقة الفطر

فى نفس المسلم

هناك أناس صامت بطونهم ولم تصم ألسنتهم.. يخرجون من الشهر الكريم وقد أُضيفت حسناتُهم إلى غيرهم.. وسيئاتُ غيرهم إليهم.. بل طرحت عليهم.. لقد صاموا صوما أضرَّ حتى بصلاتهم!

فإذا أوشك رمضان أن ينتهى شَغَلوا أنفسهم بالصفق فى الأسواق وراء أحدث الأذواق.. استعدادًا لِمَقْدم العيد.. والذى يستقبلونه بآثام جديدة.. يكتسبونها وفى شهر التوبة؟!وكان الظن بهم أن يشغلوا أنفسهم بتدارك ما فاتهم..

ومن رحمة الله بالمسلمين بعامة.. وبهذا النفر بخاصة أن أنعم عليهم بما يجبر تقصيرهم عن طريق ليلة القدر.. والصدقة.

فليلة القدر عمر جديد يضاف إليهم لو أحسنوا استقبالها..وقد قدّروها بثلاث وثمانين سنة وأربعةِ أشهر.. ويمكن لمن وُفّق إليها أن يُجدّد حياته بالجُهد القليل.. وفى الزمن اليسير.

أهمية الصدقة فى تزكية النفس:

والصدقة لون من ألوان التكافل الاجتماعى يُطهِّر الله تعالى به نفس الغنىّ والفقير على سواء..

ومن آثارها ما ذكره الدهلوى:

[ربما يُفَرِّط الإنسان فيعملُ عملا شريرا بحكم غلبة الطبيعة.. ثم يَطَّلِع على قبحه فيندم. ثم تغلب عليه الطبيعة فيعود له.. فتكون الحكمة فى معالجة هذه النفس: أن يُلزَم ببذل مالٍ خطير غرامةً على ما فعل ليكون ذلك بين عينيه فيردعه عما يَقْصد]..

هذا فيما يتعلق بالواجدين.. وهى نعمة كبرى أن يهيىء الله تعالى للمسلم وسيلة تطهره من آثامه.

أما بالنسبة للفاقدين فإنها تذهب بآلامهم النفسية.. حين تجفف دموعهم.. وتطرد همومهم.. حتى لا يكون السرور حكرا على الواجدين..

[من آثار صدقة السر]:

ودور صدقة السر فى أنفس الفقراء مبارك الثمرات...هذه الصدقة التى تأخذ سبيلها إلى المحتاجين.. بريئة من المن والأذى.

وإذا كان الله تعالى يقول: **﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هى..﴾** لما فى إظهارها من إعلان الخير. والتحريض عليه ليُقْتَدى به.. فإنه تعالى يقول: **﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفرُ عنكم من سيئاتكم﴾**.

ومن خيرية هذه الصدقة أنها تُعْفِى الفقير من الإحراج ليظل عزيزا بين قومه.

وليس من المعقول ولا من المقبول أن نملأ جيبه.. ثم نُخْرِبَ قلبه!!

ومن أجل ذلك يقول ﷺ:

«صدقة السر تطفىء غضب الرب».

ويكفى هذا دليلا على ما للنفس الإنسانية من قيمة حين نتصور أهمية سرِّية الصدقة فى الحفاظ على كرامة الفقير إلى الحد الذى تطفىء فيه غضب الله تعالى..

ونذكر هنا فى تدعيم هذه الكرامة ما قاله الإمام أحمد: لا يسأل الرجل لغيره. ولكن يقول: تصدقوا. لقوله ﷺ: **«اشفَعُوا تؤجروا»**

ذلك بأن إعلان اسم المستحق للصدقة إهانةٌ له.. والمطلوب هو التعميم حفاظا على ماء الوجه.

ومن خيرية إخفاء الصدقة ما ذكره الحكيم الترمذى:

[الإنسان إذا أتى بعمل وهو يُخْفيه عن الخلق.. وفى نفسه شهوةٌ أن يرى

الخلقُ منه ذلك. وهو يدفع تلك الشهوة فههنا الشيطان يورد عليه ذكر رؤية الخلق.

والقلب ينكر ذلك ويدفعه.

فهذا هو الإنسان فى محاربة الشيطان.. فضوعف العمل سبعين ضعفا على العلانية].

[موقف الاتقياء]:

وقد كان للسلف الصالح حرص على أن يظل الفقير الآخذُ عزيزَ النفس.. مَحْميا من الإحراج..ومن صور ذلك كما ذكر الرازى:

[وقد بالغ قوم فى قصد الإخفاء. واجتهدوا ألا يعرفهم الآخذ:

فكان بعضهم يُلقى الصدقة فى يد أعمى.وبعضهم يلقيها فى طريق الفقير. وفى موضعِ جلوسه حتى يراه. ولا يرى المعطى.وبعضهم كان يَشدُّه فى ثوب الفقير وهو نائم...

والمقصود هو:الاحتراز عن الرياء والسمعة والمِنة؛لأن الفقير إذا عرف المعطى فقد حصل الرياء والمِنّة معا..].

ثم قال:

(وفى الإظهار إخْراج الفقير من هيئة التعفف.. إلى هيئة الآخذ.. وأن الناس ربما أنكروا على الفقير أخْذَ تلك الصدقة ويظنون أنه أخذها مع الاستغناء عنها.فيقعُ الفقير فى المذمة ويقع الناس فى الغيبة) أ.هـ

وإنقاذا للمجتمع كله.. كانت الصدقة السرية أدخل فى باب الخيرية.

وكان عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام جَوَادًا كريما.. يتصدق بما لديه..

وأهم من حجم الصدقة حرصُه على أن تظل نفس الفقير عزيزة كريمة..

كان يخصُّ بالصدقة عباد الله الصالحين..وكان إذا أراد أن يعطيهم.. يضع الدراهم والدنانير فى صُرة. ثم يذهبُ إليهم وهم فى صلاتهم.فإذا سجدوا.. وأطالوا السجود.. وضع الصرة عند نقالهم.. فيُحسون بها. لكن لا يرَوْنه..

ولاحظ تجربة طول السجود مبالغة منه.

ولما سأله رجل: لماذا لا ترسل الصرة إليهم يقول: أخشى أن يتغير وجه أحدهم كلما رأى مَنْ أرسلتُ معه المال.. أو كلما رآني في الطريق].

ومن أجل هذه الحساسية المفرضة في الحفاظ على نفس الفقير..

قال بعض الصالحين:

إذا رأيت أن إلقاء السلام على مَنْ تصدَّقْتَ عليه يُحْرجه.. فلا عليك من لوم إذا لم تلق عليه السلام.. حفاظا على كرامته كإنسان!!

وهكذا يجيء يوم العيد: ذكرى تربط المرء بخالقه.. وصحوةً اجتماعية بالتزاور والتصدق.

أما عنْد غيرنا فهو الانغماس في الغفلة والشهوات والانفلاتُ من دائرة الأخلاق.. فلنستمك بِقِيمِنَا حتى لا نقلِّد قوما يوقدون فكرهم برماد لا نار فيه.

*****

معـــا..

ضد الشيطان

فى مجال التسابق إلى جوائز الدنيا.. يضاعِف المتسابقون جهودهم.. إذا ما لاحت لهم نقطة الوصول إلى ما يحقق المأمول..

وكذلك كان المسلمون فى الثلُث الأخير من رمضان: لقد صاروا قاب قوسين أو أدنى من يوم العيد.. يوم الجائزة.. من أجل ذلك.. يُعينهم ربهم سبحانه بما يضاعف طاقاتِهم.. حتى يصلوا إلى الشاطئ سالمين غانمين: عن طريق الاعتكاف.. الذى يصفى الله تعالى به ما بقى من أكدار النفوس...

ثم تلمسِ ليلة القدر التى كانت عُمراً يضاف إلى رصيد المسلم.. فإذا أحسن فيها أقواله وأفعاله.. أصلح الله حاله.. فكان يومَ العيد سعيدا رشيدا..

وإذا كانت أسواق الدنيا تقوم.. ثم تنفض.. فيلجأ التجّار عندئذ إلى حساب الربح والخسارة.. فإن المتاجرة مع الله تعالى.. بالصوم هى التجارة الرابحة.. والتى لا خسارة فيها أبدا.

وإنما هى المكاسب العظيمة.. والتى تتلخص فيما يلى:

١ ـ لقد صُمنا عن الحلال.. وهو الذى يُصلحنا.. فنحن أجدر بالصوم عن الحرام الذى يفسدنا.

٢ ـ استغنينا عن الضرورات.. فنحن أولى بالاستغناء عن الكماليات.. زهدا فيها.. وضنا بأموالنا أن نَستقدم بها ما يضرنا..

ذلك بأن استيراد الثوب المزركش.. ليس بأولى من استيراد ما نُؤَسس به البنيان ليظل شامخا ثابتا..

٣ ـ تَحرَّرْنا من سيِّيء العادات..

فقد صابر مدمنُ الدخان شهوة النفس.. فاستغنى عن اللفافة اليوم. ولم ينفجر رأسه.. ولم يتجمد الدم فى عروقه.. وهو فى مستهل يوم العيد قادر على

مواصلة الحياة حرًّا من قيد يَشُل حركته.. ويعُوق انطلاقته.

٤ ـ لقد سقطت من حسابات الأسرة وجبة كاملة..

هذه الوجبة التى يمكن أن تستغنى عنها القرية.. أو الحى.. بين الحين والآخر.. لتكون فى النهاية معهدا.. أو مستشفى.. أو مشروعا لمساعدة الراغبين فى الزواج..

[العدو الأكبر]:

هذا هو المشروع الحضارى الإسلامى.. والذى يعدنا الصوم لإتمامه.. يُعِدُّنا ويرشحنا.. ليكون بنا واقعا ملموسا..

إن الله تعالى يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

﴿لعلكم تتقون﴾.. أعنى: لتأخذوا طريقكم إلى تحصيل ملكة التقوى.. التقوى التى تهيأتم بالصوم لتكونوا أهلا لها.. قادرين على تحقيقها فى السلوك عملا..

لقد كان الشيطان.. وعلى مدى رمضان.. كان مقيدا..

واليوم.. يُطلق سراحه.. مستأنفا رحلة الإفساد من جديد.. فى محاولات مكرورة للعودة بنا إلى النفق المظلم.. إلى سابق العهد والأوان.. محرومين من هذه المكاسب التى حققناها بالصوم..

وإذن.. فواجبنا اليوم أن نأخذ وضع الاستعداد.. حتى نُفوّت على الشيطان غرضه.. وأولَى واجباتنا أن تعرِف هدفه ووسيلته حتى يكون انطلاقنا لمنُازلته نابعا من فهم عميق.. معين على الانتصار عليه.

هدف الشيطان:

أقسم الشيطان الرجيم متبجحا: **﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾**.

والإغواء يعنى: الضلال. والخيبة. وفساد العيش.

فإذا كان الحق تعالى قد أغواه ـ بسبب سوء تصرفه ـ فالشيطان يريد أن يذيق الناس من نفس الكأس حسدا من عند نفسه.

وسيلته:

وقد وضَّحت الآيات الكريمة وسائله التى بها يحبط سعى الإنسان والتى تتلخص فى:

أ ـ التخويف من الفقر.

ب ـ وليَحْزُن الذين آمنوا.. بالذات.

وذلك قوله تعالى: ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾[٣].

وإذا كانت آية المجادلة تحسم القضية لصالحنا سلفا.. بما تشير إليه من أن كيد الشيطان مهما كان.. لن يحقق غرضه.. ولن يكون دوّلة داخل الدولة.. ولن يضرنا شيئا.. وإذا كان ضررٌ فهو لحكمة من الله تعالى.. إذا كان الأمر كذلك.. فإن آية البقرة تتقاضانا الوقوفَ بين يديها لنْدرك طبيعة حركته فى الإغواء والإغراء حتى لا نقع فى شَرَكه المنصوب.

عدو.. فى ثياب صديق:

منَ المسلَّم به أن الشيطان عدو.. بل عدو مبين..

وإذن فهو لا يعدنا.. لأن الوعد يكون بالخيْر.. وإنما وظيفته أن يُوعدنا.. لأن الإيعاد أليق بوظيفته الخبيثة.

ولكن الآية تعبِّر عن مكنون عدوانه وخداعه.. فتقول: ﴿**يعدكم..**﴾.

وربما دَلَّ ذلك على أنه يوهمنا بأنه صديق.. لا يريد لنا إلا الخير.. فهو

يَعِدُنا. . ولا يوعدنا. . فلماذا نخاف منه. . ونسيءُ الظن به ما دام هكذا صديقا ودودا؟!!

وفى الآية الكريمة ما يشير إلى ذلك:

فهو يُغريك بالبُخل. .لكنه لا يستطيع أن يزين لك البخل. . لأن وجهه البخل القبيح لا تُجدى معه المساحيق!

ولذلك يجيئك من باب الغريزة.غريزة حب الحياة. . والتى تخشى الفقر. .

وغريزةِ حب التملك التى تجد متعتها الأثيرة فى اقتناء المال. . وتنامى رصيده.

فإذا رفضتَ فكرته ابتداء. . قطع طمعه فيك. .

ولو أطعته فى هذه المرحلة الأولى. . استدرجك إلى السفح. . الذى يدحرجك إليه. .

ولا ينقلُك إلى حضيض البخل هكذا دَفعة واحدة. . حتى لا تشعرَ بحركته الخبيثة. .

وإذا أنت فى دائرة البخل. .وإذًا. . فقد أقنعك بهذا السلاح الهدام. . والذى حمل الأمم على أن تقتتل. . وأن تستحلَّ المحارم.

إنه يقول لك مستدرجا:أنفِق. . ولكن من القِوت الردىء فى البيْت. . والفقيرُ راضٍ منك بذلك!

ولأنك أصغَيت إليه. . فقد ضعفُتْ لذلك مقاومتُك. . فصِرت لا تنفق جيدا ولا رديئاً. .بل قد تتقدم على الطريق. . فتأمرُ الناس بالبخل. . وما يترتب على ذلك من الفواحش. . التى تشير الآية الكريمة أنه يأمرك بها. .

وكيف لا يأمرك اليوم من موطن قوته. . بعدما استنوقْتَ فى مقاومته. . وسلس فى يده قيادك!!

ويذكرنا ذلك بقول أحد الصالحين:

[يقول الشيطان:إذا استمكنتُ من ابنِ آدم ثلاثا، أصبت منه حاجتى:

١ ـ إذا نسى ذنوبه.

٢ ـ وإذا استكثر عمله.

٣ ـ وإذا أُعجب برأيه..

وكيف ينجو منى ابن آدم.. وإذا غضب كنت عند أنفه. وإذا فرح كنت فى قلبه].

من وسوسة الشيطان إلي إلهامات الرحمن:

ويُنقذك الحق تعالى من أسر الشيطان الذى يعدك الفقر فى غَدِ دنياك.. والله تعالى. يعدك بالمغفرة فى غد عقباك.

ووعد الرحمن أوْلى بالقبول:

أولًا: إن غد العقْبى مقطوع به.. وغد الدنيا.. قد لا يجىء.

ثانيا: لو وُجد غد الدنيا.. فقد لا يبقى المال المبخُول به.. أما المغفرة فمتحققة قطعا.

ثالثا: وحتى لو وُجد المال.. فقد يمنعك من الانتفاع به شاغل أو مرض.

رابعا: وقد تنتفع به.. لكنه قصير الأجل..

خامسا: لَذَّات الدنيا مشوبة بالمضار.. أما لذات الآخرة فخالية منها.

ومع المغفرة يمنحك الرحمن سبحانه فضلا منه.. هو تلك الفضيلة.. فضيلةُ الجود التى تكون ملكة راسخة فيك..تنفق.. لو كان معك..

وتتمنى الإنفاق.. حتى وأنت فى إملاق.

وإذن.. فأحق الداعِيَين بالاستجابة هو داعى الرحمن.. الذى يأمرك بالإحسان.. الإحسانِ إلى نَفسك قبل أن تحسن إلى غيرك..

إنَّ تحصيل المال وصله سعادة خارجية..والسعادة الخارجية لا تكفى.. ولو كنت تملك مال قارون.. أما السعادة النفسية بالإنفاق.. فهى الأبقى والأنقى.

[رواد.. على الطريق]:

ومما يعينك على الالتزام بقيم الإسلام.. هؤلاء الرواد من سلفنا الصالح.. والذين فوّتوا على الشيطان غرضه اللئيم. فلمْ يستكثُروا أعمالهم.. ولم يستصغروا ذنوبهم.. ولا استبدوا بآرائهم... ولم يخافوا الفقر أبدا.. توكلا على الله سبحانه:

ومنهم ذلك العالم الذى شكا إليه تلميذه كثرة العيال.. وقلة المال..

فقال له العالم: عُدْ إلى بيتك يا رجل.. ثم ائتنى غدا بواحد من أولادك.. لم يتكفل الله سبحانه وتعالى برزقه؟!

وهى سخرية تذكر الوالد بحقيقة غابت عنه.. بحقيقة التوكل على الله تعالى.. والذى تكفل سبحانه برزق كل دابة..

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

وقال عز وجل: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾.

هذا على المستوى الفردى.. أما على المستوى الاجتماعى:

فقد اشتكى جماعة سوء أحوال البلاد.. وتردِّى الأوضاع الاقتصادية.. فأخبرهم الشيخ بأن العلاج هو: الاستغفار.. قائلا بعدما عجبوا من الجواب:

ألم تقرؤوا قوله تعالى:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾.

إن الاستغفار يعنى تطهير النفس من الخطايا. ويعنى ذلك أنه إنقاذ من الذنوب.. وما يترتب عليها من الاعتلال نفسيا.. واجتماعيا.. واقتصاديا:

فالذنوب من الناحية النفسية: اعتلال الصحة.. واختلال المزاج.. ومن الناحية الاجتماعية: بُغْضُ الخلق ونفورُهم من المعاصى.

ومن الناحية الاقتصادية: نقص فى الأموال والثمرات.

من أجل ذلك كان أمل الصالحين أن يتحرروا من الذنوب.. هروبا من هذه الآفات..

ومنهم ذلك العالم الذى قيل له: ما تشتهى؟ قال: عافيةَ كلٍّ يوم. فقيل له: ألست فى العافية سائر الأيام؟ فقال: العافية أن يمر عليك يوم بلا ذنب!!

إن من عَبَد الله تعالى بصدق.. ازداد قوة.. ومن يكسَلْ.. ازداد فترة.. فضعفت مقاومته للشيطان..

ألا وإن الطاعة خير.. والعقلاء يقولون لك: إذا فُتح لأحدكم باب خير.. فليسرع إليه.. فإنه لا يدرى متى يغلق..

[تجنب الغرور]:

والمسلم يرى ذنبه مثلَ الحجر.. ولأنه كالحجر.. فله حجم ملحوظ.. وإذن.. فإن صدور الذنب منه يعنى أنه يراه.. ويرى هرم ذنوبه يزداد به ارتفاعا وامتدادا.. ولذلك فهو يَفْزع لِمَا يرى.. ثم يحاولُ الإقلاع عن مثله..

أما المنحرف السائر فى غَيِّه فإنه يرى ذنبه كحبة القمح.. ولأنها صغيرة.. فهو لا يرى أن الذنب يضيف شيئا فى مرأى العين إلى مجموع ذنوبه.. كما وأنه لا يقلع عن ذنبه.. استهانة به.. لأنه ما دام كالحبة هذا صغيرا فما عساه أن يؤثِّر فى كومة الذنوب لو فُصِل عنها!!

وتفاديا لهذه الغفلة كان المتقون أدق حسابا للنفس.. وأبعد الناس عن الغرور بما قدموا من عمل.. ومنهم الإمام أحمد:

لقد كان هناك سؤال يلح عليه. ويؤرقه فى نفس الوقت.. وذلك عندما يقف بين يدى ربه تعالى ليقول له: هل علمت، أم جهلت؟. وسوف يكون الجواب: علمت.

وعندئذ تحتشد فى وعيه آيات الأمر.. وآيات النهى فى القرآن.

تقول الأولى: هل ائتمرت؟!! **وتقول الثانية**: هل انتهيت؟!!

إن استكثار العمل يعنى الغرور.. وإذن.. فالمغرور لا يحب أن يَنْقده أحد.. والإعجاب بالرأى - كما يريد الشيطان - يَعْنى الاستبدادَ الذى يرفض كل رأى ولو كان صائبا.. ولو تم ذلك كله.. لتقطعت وشائج الاتصال بين أفراد المجتمع.. الذى صار بالغرور.. جُزُرا.. متباعدة.. بل متنافرة.. وذلك هو هدف الشيطان الرجيم حتى لا يكون فى المجتمع عمل صالح ولا مشروع ناجح.. إن الملح يتكون من عنصرين: الأوكسجين.. والكلور وكلا العنصرين بمفرده مُضِرّ..ولو اجتمعا.. لكانا الماء الذى هو سبب الحياة..

وواجبنا أن تفوّت غرض الشيطان.. بالتسامح.. والعفو..

قال رجل لابن المبارك، وقد رأى قاتلا مقيّدا بالسلاسل: أنا أفضل من هذا.

فقال له ابن المبارك: هو بذنبه أفضل منك فى غرورك!

لأنه قد يتوب.. وأنت لا تعرف خاتمتك!!

والأصل فى ذلك قوله ﷺ: «**إن من موجبات المغفرة إدخال السرور على أخيك المسلم**».. وليس أدعى للسرور من العفو عنه.. وتناسى ذنبه..

لقد كان الذنوب ليلا بهيما.. لكنك بالعفو تطلع عليه كالصباح والذى يطرد أشباح الظلام، والعصاة.. أولى الناس بعفونا.

حتى العصاة منا يجب أن يسعدوا بنا:

إنه لا مكان للشماتة فى قلوب المؤمنين.. فى تعاملهم مع الخطائين. وإنما هو الإشفاق.. والوقوف إلى جانبهم.. حتى نقيلهم من عثراتهم.

ونقرأ فى هذا المعنى ما رُوى من أن «معروف الكرخى» كان يوما على شاطىء دجلة ببغداد. إذ مر بعض الشباب. فى زورق يضربون الدفوف.. ويشربون! فقيل له: ادع عليهم!!

فرفع يده وقال: إلهى وسيدى: أسألك أن تُفرِّحهم فى الجنة.. كما فرَّحتهم فى الدنيا! فقيل له: إنما قلنا: ادع عليهم.. ولم نقل: ادع لهم!!

فقال: إذا فرَّحهم الله فى الآخرة.. تاب عليهم فى الدنيا.. ولم يضركم شيئا!!

وكأنما كان التلاميذ هنا يتهمون أستاذهم بأنه لم يفهم السؤال.. فاتهمهم هو بالغباء..والجفاء.. لكنه لم يواجههم بذلك..مبيِّنا لهم:

أن المؤمن . . يطلب المعاذير ، والمنافق . . يطلب العثرات . .

فلماذا نقطع خط الرجعة على شباب يمكن أن يعودوا إلى الحق يوما . . أين مشاعر الإشفاق . . بدل مشاعر الشقاق . . لنُعين العصاة على عودٍ حميد إلى الحق من جديد؟

أما بعد: فإن من بدهيات الحروب العسكرية ، تدمير غرف عمليات العدو . . ومراكز اتصاله . . قبل أن تلتحم الجيوش . . لأنه : إذا تقطعت الأوصال . . فقد استحال الاتصال . .

وإذا توقف الاتصال : فلا قائد . . ولا مقود . . من حيث فرَّقْتهم الوقيعة فلم يَعُدْ أحد يعرف أحدا . . بل لا يعرف دوره . . ولا إلى أين يسير .

وهكذا يريد الشيطان المريد : يريد أن يقطع الوشائج بيننا . . يصَدَّنا عن ذكر الله . . وعن الصلاة . . حتى نكون أشلاء وتفاريق . .

وإذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . . فإن الشيطان يتخذها غرضا أصيلا . . حتى يُخَرِّبَ بواطنَنَا فلا يكون فيها الواعظ المقم . . والذى يضبط الخطى على الطريق المستقيم .

ولله شباب تذكروا . . فأبصروا . . فنَجَوْا من كيد الشيطان ومنهم ذلك الفتى القائل :

ثلاثون من عمرى مضَيْن . . فما الذى أؤملُ من بعد الثلاثين من عمرى؟!
أطايب أيامى حَضَيْن حميدة سراعا . . ولَم أشعر بهنّ ولم أدر
كأن شبابى ـ والشيبُ يزرعه ـ : دجى ليلةٍ . . قد راعها وضَحُ الفجر

عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : **«قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له: إلا الصيام. فإنه لى. وأنا أجزى به».**

والصيام جنة:

فإذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يرفثْ. ولا يصخب.

فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إنى صائم.

والذى نفس محمد بيده لخُلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

للصائم فرحتان يفرحهما:

إذا أفطر فرح بفطره. وإذا لقى ربه فرح بصومه» متفق عليه.

من رحمة الله تعالى بنا. أن يكلفنا بما يصلح أمر معاشنا ومعادنا.

وقبل ذلك أن يعيننا على أداء ما كلفنا تعالى به:

فمن السنة: أن تمهد لصلاة الفريضة بركعات.. تصفى ما علق بك من أكدار الدنيا.. حتى إذا باشرت الفريضة كنت مهيأ لتلقى بركات السماء..

ومن السنة أيضا: أن يكثر صيامك فى شعبان. .فهو شهر ترفع فيه الأعمال. .ثم هو تمهيد يجعل من صيام رمضان أمرا ميسورا..

من فقه الحديث:

هكذا الأيام، تمضى بنا.. فنسارع فى هوى أنفسنا.. التى نحرص على تحقيق رغائبها..

بل إن من أرباب الهوى ذلك الشاعر القائل:

ولست بصائم رمضان عمرى ... ولست بآكل لحم الأضاحى

ولست بقائل ما دمت حـيا ... قبيل الفجر حى على الفلاح

ولكن.. يأتى رمضان فيتغير كل شىء.. ليكون هوانا مع الحق.. وما الحياة بلا تغيير.. إنها ستكون أداء ملولا. .ولكن التزامنا بالحق صعب..

من أجل ذلك يجىء الحديث معينا للمسلم على الالتزام. ومن مظاهر ذلك:

أولا: إذا كانت العبادات كلها لله تعالى وحده.. فإن للصوم مزية خاصة.. فهو لله. وفى هذا ما فيه من دواعى الإخلاص فيه. ليجىء مرضيا للآمر به سبحانه.

ثانيا: ثم إنه هو الذى يجزى به.. ومن ثم.. فهو جزاء من يوفى الصابرين أجرهم بغير حساب.

إن الصيام ـ مع أنه عبادة سرّية بين العبد وربه ـ إلا أنه قد يكون فيه دخل **«ورب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش»**

وإذن فالتعبير حسن ظن بالعبد.. فلم يقل تعالى: فاجعله لى.. كما قال فى غيره.. وكأنما العبد مهيأ ليكون مخلصا لله تعالى.. فهذا شأنه كمسلم..

كما وأنه تعالى لم يقل.. وأنا أجزى عنه وإنما قال سبحانه:

«وأنا أجزى به..»

فكأنما كان الصوم أداة للجزاء وسبيلا إلى المغفرة ووفرة الثواب.

واجب المسلم:

وعلى المسلم أن يتصور الشيطان دائما واقفا يحرضك على أخيك.. ليحزنك ويحزن أخاك..

وعليك أن تحبط سعيه برد سهمه إلى نحره.. لتحزنه هو.. إنه يوسوس لك:

أ - بالفحش فى القول.. والصخب.. وهو الجلبة واللغط.

ب - ثم بالعمل الذى تخرج به من صف الجماعة المؤمنة.. عن طريق الفسق فى السلوك..

فإن سابك أخوك.. فلا تزد على أن تقول: إنى صائم.. وقلها مرتين.. كما تشير رواية أخرى.. لعل فى الثانية ما يعزز الأولى ليخنس الشيطان..

فإذا طور المعتدى المعركة فصعّدها من القول إلى الفعل وهو المفهوم من قوله: أو قاتله..

إذا حدث ذلك.. فكن ثابتا على صبرك.. الذى يجب أن تحوله من الصبر إلى المصابرة..

ومن هذه المصابرة.. ألا تقول له: إنك صائم.. وما تفعله معى يناقض صيامك.. ولكن قل: إنى صائم.. فالقضية قضيتك أنت وهو ليس طرفا فيها.. وإلا أثَرْتَه.. وبدا يستنفر ما بقى من عدوانه!!

ويعنى ذلك كله: أنك بالصيام تعلن التحرر من عاداتك.. من قيودك.. فلا تقابل السيئة بمثلها..

ولننشئ فى أنفسنا عادات جديدة على هوى الحق.. فارّين من وسوسة الشيطان وكيده المبيّت..

فلنقبل - من اليوم - لنقبل الحق.. وإن كان مرا..

لنتحمل البذىء.. ترضية للحق.. ولنتحمل الخلُوف.. مراغمة للنفس الأمارة..

أجل لنتحمل بالصيام ما لا يرضينا.. لكنه فى نفس الوقت يهدينا!!

عن عبد الله بن أبى أوفى:

كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر.. فى شهر رمضان. فلما غابت الشمس قال: «**يا فلان، أنزل فاجْدَحْ لنا**».

قال: يا رسول الله: إن عليك نهارا. قال: «**أنزل فاجدح لنا**».

فنزل. فجدح. فأتاه به. فشرب النبى ﷺ.

وفى رواية: لو أمسيت..

قال: «**أنزل فاجدح لنا** » قال: إن علينا نهارا..

فنزل. فجدح له. فشرب ﷺ[١].

معنى الحديث:

(أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا صياما فى رمضان فلما غربت الشمس. أمره النبى ﷺ بالجَدْح. ليُفطروا. فرأى المخاطب آثار الضياء والحمرة. التى بعد غروب الشمس. فظن أن الفطر لا يحل إلا بعد ذهاب ذلك.

واحتمل عنده أن النبى ﷺ لم يرها. فأراد تذكيره وإعلامه بذلك.

ويؤيد هذا قولُه: إن عليك نهارا.. لتوهمه أن ذلك الضوء من النهار الذى يجب صومه.

وهو معنى: «**.. لو أمسيت**» أى: لو تأخرت حتى يدخل المساء).

مغزى المراجعة:

حاول شراح الحديث تعليل مراجعة الرجل للرسول ﷺ والذى كان عليه أن ينفذ الأمر فور صدوره.. منطلقين فى هذا من يقينهم بسلامة ما يأمر به الرسول ﷺ.. ومن ثم.. ولأنه لا ينطق عن الهوى.. إن هو إلا وحى يوحى.. كان على المأمور أن يأتمر.. وبلا مراجعة..

وقالوا فى ذلك:

(وتكرير المراجعة.. لغلبة اعتقاده ـ أى الرجل ـ على أن ذلك صيام. فيحرُم فيه الأكل.. مع تجويزه أن النبى ﷺ لم ينظر إلى هذا الضوء نظرا تاما.. فقصد ـ الرجل ـ زيادة الإعلام ببقاء الضوء)[٢].

---

(١) مسلم: . ج٧/٢٠٩.

(٢) النووى.

ولكن الموقف فى جملته لا يحتمل الدفاع عن الرجل.. الذى ظُن أنه تجاوز الحد فى مراجعته..

ذلك بأن الموقف شهادة للإسلام الذى يقدر شخصية المسلم قدرها حتى وهو بين يدى رسول الله ﷺ، هذا الموقف الذى تطل منه قيمة الحرية.. كحق مكفول للإنسان.. إن قيمة الحرية قيمة كونية.. وقيمة إنسانية.

ولك أن تتصور الطائر الطليق فى جو السماء.. والذى سوف يموت.. لو أنك حبسته فى القفص.. وهى حرية تمنح المواطن حق مراجعة الحاكم.

على أن يكون ذلك.. فى الضوء.. وعلى أرض مكشوفة.. وألا تكون مراجعتك من فراغ.. بل لابد أن يكون لها مسوغاتها.

والحاكم العظيم لا يسعده أن يكون أتباعه أصفارا على الشمال.. يدورون فى فلكه.. مقلدين.. لأن التقليد لا ينهض مسوغا ليخسر المقلد حياته: يومه.. وغده! لكن الذى يسعده أن يكون تابعه شخصية لها شجاعتها الأدبية الأبية التى تحاول أن تصنع معه القرار.. ليتحمل الجميع مسؤوليته معا..

بالإضافة إلى تأصل ملكة الابتكار والاختراع فى ضمير الأمة.. ثم ملكة الثبات فى مواجهة الملمات بهذه الشخصية الفاعلة:

والتى تواجه الحياة فى قسوتها مواجهة الند.. لا تحنى رأسها للعاصفة ولا تستلم لدموع الأحزان.. بل إلا قلبها يتسع لأكبر من مأساتها الخاصة.. ليحتضن آلام الآخرين.

عن مجيبة الباهلية.. عن أبيها أو عمها: أنه أتى رسول الله ﷺ.. ثم انطلق. فأتاه بعد سنة.. وقد تغيرت حاله. وهيئته.

فقال: يا رسول الله.. أما تعرفنى؟

قال ﷺ: **«ومن أنت؟»**

قال: أنا الباهلى. الذى جئتك عامَ الأوّل.

قال: **«فما غيّرك؟ وقد كنت حسن الهيئة؟»**

قال: ما أكلت طعاما منذ فارقتك إلا بليل!

فقال رسول الله ﷺ: **«عذبت نفسك!!»**

ثم قال: **«صم شهر الصبر. ويوما من كل شهر»**.

قال: زدني. فإن بي قوة!

قال: «**صم يومين**».

قال: زدني..

قال: «**صم ثلاثة أيام**»..

قال: زدني..

قال: «**صم من الحُرُم واترك..**» وقال بأصابعه الثلاث فضمها. ثم أرسلها. رواه أبو داود.

هكذا تأخذ «مجيبة الباهلية» مكانها فى المجتمع كقَناة من قنوات المعرفة.. ممثلة لدور المرأة الإيجابى فى التمكين لحقائق الدين فى القلوب.. بعدما كانت قطعة من أثاث البيت لا يؤبه لها..

وإذْ توافينا الأنباء اليوم عن تلك المعارك الدائرة بين الآباء والأولاد: بنين وبنات.. حول قضية الميراث.. التى يسقط فيها آباء.. تجاوزوا حدود الله فلم يعدلوا بين أبنائهم.. وما يترتب على ذلك من غضب تصبه بناتٌ على آباءَ لم يعدلوا..

فى هذا الوقت.. يطالعنا ذلك الود الحميم بين البنَات.. وبين آبائهم.. إذا كانوا معا تلك السلسلة الذهبية.. المتصلة الحلقات.. ينقلون عنهم.. ويترحمون عليهم.. ويحسنون إليهم بهذا التواصل.. وهذا الوفاء..

ويتضاعف إعجابنا.. حين ننتقل من وفاء الأبناء.. إلى وفاء العلماء.. المتمثل فى دقة الرواية.. حيث يقول الراوى: «**.. عن أبيها أو عمها**».

ومع أن الحقيقة لن تتغير إذا كانت آخذة عن أبيها أو عمها.. إلا أن الوفاء للحق يفرض عليه أن يَعْرِض القضية هكذا حيث لم تتوفر له دلائل اليقين.

وهى دقة تشجب ما كان من ترخص أحيانا فى رواية الحديث على ما يقول الشهاب الزهرى:

يخرج الحديث من عندنا شبرا.. ويعود فى العراق ذراعا.

وهو ما أشار إليه مالك بقوله: (إذا جاوز الحديث الحرتين.. ضعت شجاعته)!

وكان يسمى الكوفة.. دار الضرب. لأنها تصنع الحديث كما تصنع النقود. «أمراء البيان» ج٢/٣٥٨.

[عندما يولد الإيمان قويا]:

وقد ولد إيمان الرجل قويا.. قوة حملته هموما ما ثقالا.. عبر عنها بهذا الصيام الموصول.. والذى غيّر ملامحه.. وعلى مدى عام واحد.. إلى الحد الذى لم يعرفه الرسول بعدما تغيرّ حاله.. وهيئته.. وبغض النظر عن قراره المتشدد.. إلا أنه كان رمزا من رموز الشباب الأبى الفَتى.. والذى استدبر مناعم الدنيا.. ومن أول يوم أعلن فيه إسلامه.. ثم تعلقت همته بالثريا.. طلبا لمرضاة الله تعالى..

وهكذا.. كان أمره على ما قيل:

من نصب إلى أوزة.. أخذ أوزة.. ومن نصب إلى عصفور.. أخذ عصفورا..

ومعناه: (أن الشبكة التى تحبس الأوز.. لا تحبس العصفور.. والتى تحبس العصفور.. لا تحبس الأوز.، فالمقدمات.. على قدر الهمم).

ويظل أصحاب الهمم العظمى سعداء بما نالوا.. بينما عشاق الدنيا يصطلون بين: آمال عاشوا لها.. ثم ضاعت منهم.. وإلى الأبد.. وآلام استقرت فى أعماقهم.. وإلى الأبد!!

حرية الإيمان:

ويلفت النظر هنا أن الرسول ﷺ لا يضيق ذرعا بحوار الرجل.. واسترساله فى أمانيه.. ذلك بأنه لم يكن أمام موقف معاند.. يتحدى الحق.. وإنما كان أمام فتى له رأيه.. وله كذلك حرية الدفاع عنه.. ولئن أخطأ الاتجاه.. فإنه خطأ المحاولة.. لا خطأ الإصرار والإعجاب بالرأى..

والرسول الكريم لا يريد أن يكون أتباعه أصفارا على الشمال! وإنما يربى فيهم الإرادة الحرة.. ليكون المسلم سيد قراره.. لقد سمع هذا الفتى عندما أسلم.. إلى قول رسول الله ﷺ.. على ما يقول سبحانه:

﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾.

إنه يميز.. بين الفاضل.. والأفضل.. بين الحسن.. والأحسن.. ثم ليختار ما يراه الأفضل والأحسن إنه ليس عزاَ قيِّد.. فانقاد..

وإنما هو ـ وفى ضوء إيمانه ـ يختار من الأفكار ومن الأعمال:

[. . أثبتها على السبك وأقواها عند السبْر وأبينها دليلا .

فإذا تعارض مبدؤه مع راحته . . لم يتردد فى اختيار مبدئه مهما كلفه . .] .

[الباقعة.. وليس الإمعة!]:

إن المسلم ليس إمعة . . ولكنه الباقعة . . القوى . .

ليس هو حشوا فى كيان الأمة: لا يملك رأيا . . بل لا يملك وجودا :

فالقول . . ما قال غيره . . والفعل . . ما فعل غيره . . لا ليس المسلم كذلك ولكنه شخصية : شخصية : تفكر . . تبتكر . . فإن أصاب . . فله أجران . . وإن أخطأ . . فله أجر . .

فهل سمعتم عن مذهب يرصد للمخطئ جائزة؟!!

ولكنه كما قلنا : خطأ المحاولة . . لا خطأ الأهمال!

ومع ذلك . . فهو ملتزم بالحق إذا تبين . . راض به مستسلم له . .

إن الرسول الكريم هنا يريد لطاقة الرجل أن تبقى منها بقية يسهم بها فى إعمارُ الحياة . . وكان من حقه أن يلزم بها الفتى إلزاما . . لكنه لم يفعل . . احتراما لهذه الطاقة نفسها أن تمس بضغط أو إكراه . .

ثم كانت النهاية على ما يهوى الحق هى : الالتزام . . من جانب المدعو . .

وليس الإلزام من جانب الداعى . فلا إكراه فى الدين .

*****

عيد الفطر ووحدة الأمة

إذا كانت الأعياد لدى أمم الأرض سكرا ولهوا معيباً.. يتعاون الناس فيها على الإثم.. فإذا بك أمام ظاهر وراء.. وباطن خواء: بهجة فى المظاهر.. وعفن فى الضمائر.. إذا كانت الأعياد فى غيبة الإسلام كذلك.. فإن للأعياد فى منطق الإيمان مذاقا آخر.

فبينما المحرومون هناك يسحون الدموع أنهاراً.. ويرسلون الآهات عواصف.. فإن المحرومين فى المجتمع الإسلامى يجدون أنفسهم فى ذلك اليوم.. ويحسون بكرامتهم الغائبة.

وإذا شكلت الأنانية هناك حاجزاً مانعاً من الإحساس بوجود الآخرين.. فكان العيد فرحة أفراد.. فإن العيد فى منهج الأمة التى صاغها الإيمان هو عيد الجميع بلا استثناء.. بل هو عيد الإنسانية كلها.. والذى جاء به دستور الحياة الخالد.. الذى قبست البشرية من نوره.. ومن حقه عليها أن تحتفل معنا بمعانيه.. وأن تأخذ سبيلها محققة مراميه.

*** ملامح العيد:**

فى أعيادنا .. تبرز الملامح التالية:

(أ) إن العيد .. تعاون على البر والتقوى تستيقظ به الأمة كلها فإذا هى كيان واحد.

(ب) ثم هو يوم التحدى الأكبر للشيطان وجنوده.

(جـ) وإلى جانب ذلك فهو يوم الجمال .. والكمال معا.

أما أنه تعاونه على البر: فإن الواجد ليعطى الفاقد.. حتى إذا فاض عن حاجته صار هذا الفقير مطالبا بالصدقة فى صحبة إحساس كغيرة من القادرين بأنه صاحب يد عليا.. وما يترتب على ذلك من شعور بالعزة .. بعدما ذاق بالأخذ معنى الهوان.

ثم إن المنفق فى ذلك اليوم لا يعطى مدفوعا بشعور المتصدق .. ولكن بمشاعر الصديق .. حيث تتراجع معانى الإشفاق على فقير .. لتكون مشاعر التقدير.. لرفيق على درب الحياة .. أجل .. يسعد الفقير بهذا العطاء .. فتتسع دائرة البهجة.. وتكون للعيد قيمته..

حين يسرى تيار السعادة ليشمل طوائف الأمة كلها . . فلا قيمة لسعادة يحس بها الغنى . . بينما الفقراء من حوله يتلمظون . . ولا يتم صلاح الدنيا إلا فى بيئة يسعد فيها الفرد سعادة منبثقة عن صلاح مجتمع ينضح من حوله بالسرور.

يقول الماوردى: [واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين:

أولهما: ما ينتظم به أمور جملتها.

والثانى: ما يصلح به حال كل واحد من أهلها.

فهما شيئان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه . . لأن من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها، ويقوم فيه اختلالها، لأنه منها يستمد ولها يستعد.

ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها، لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها أثرا؛ لأن الإنسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له. ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه؛ لأن نفسه أخص وحاله أمس . . فصار نظره إلى ما يخصه مصروفا وفكرة على ما يمسه موقوفا].

*** حياة الجسم وحياة الروح:**

إن الواجد المسلم حين يعطى . . لا يقذف بالصدقة فى وجه الفقير قذف المتحلل من عهدتها . . ولكنه يعطيها بيده . . بل وبكل جوارحه . .

فهو يبتسم فى وجه الفقير . . متوددا إليه مقبلا عليه . . معبراً بهذه البسمة عن سعادته بقبول هديته . . ولسان الحال هنا أفصح من لسان المقال: فالفقير المجروح قبل أن يمد يده ليأخذ . . يفتح عينيه ليرى ملامح وجهك . . فإذا أضاءت بسمتك قلبه . . كنت قد حققت بالصدقة أمرين:

حياة الجسم . . بالمال . . وحياة النفس . . بالكرامة . . ثم يتوج الموقف كله بظهور معنى العطاء وكيف يحقق أعظم لذة فى النيا:

عطاء فتى تمكن فى المعالى   فأعرض فى المكارم واستطالا

*** التحدى الأكبر:**

فى آخر يوم من رمضان يحس المؤمن بالنصر الأكبر على الشيطان وجنوده: فقد أرغمت أنفه على مدى الشهر . . ولم تمتنع فقط عن تناول الحرام . . بل امتنعت عن الحلال استجابة لأمر الله تعالى . .

ثم تجىء الضربة القاضية يوم العيد . . لقد كنت بالأمس . . وفى آخر يوم من

رمضان .. صائما .. ثم إذا بك يوم العيد تأكل .. فإذا جاء ثانى أيام العيد أعلنت الصيام اتباعا لسنة نبيك .. وكأنما تتحدى الشيطان قائلا: إن زمام المبادرة فى يدى .. أنا المسلم أصوم .. وأفطر .. ثم أصوم .. امتثالا لأمر ربى ... وعلى الشيطان أن يخنس فلا سلطان له على .. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾!! [سورة الحجر: آية ٤٢] وأنت خبير بأمة تفلت من قبضة الشيطان.. إنها الأمة الحرة القادرة على صنع المعجزات .. والتى تجوع .. ولا تأكل بثدييها!

وتلك سمة المؤمن الذى هو لبنة فى هذا الصرح العالى .. فلا الولد يستأثر بحبه ولا الزوجة تستأثر بهواه .. ولا المال يملك قلبه .. ولا الجاه يستبد بحياته.. ولا التجارة تستأثر بهمته، ولا البيت ينفرد بشوقه .. لا شىء إلا حب الله تعالى وحب رسول الله ﷺ.. وهذا هو الامتحان العسير الذى هو مسبار الصابرين ومعيار لصدق الصادقين وميزان المخلصين.

*** ومن الجمال.. إلى الكمال:**

يبدأ المسلم يوم العيد فردًا .. ثم إذا هو من بعد .. خلية فى المجتمع .. إنه يبدأ بالدنيا .. ثم ينتهى بالآخرة .. يستهل بالجمال.. ثم يختتم بالكمال .. فنحن مأمورون أن نلبس أجود ما نجد .. وأن نضحى بأحسن ما نملك .. إنه الأجود .. وإذن .. فلابد من التغيير بلبس الجديد .. ليكون ثوب العيد أجمل من ثوبك التقليدى بالأمس. ثم هو: ما نجده .. ببساطة . ولا تكلف .. والثوب النظيف رمز لمجموعة من المعانى فهو آية النقاء .. وهذه ناحية جمالية .. ثم هو ترفع عن القذر .. فلا يطول حتى يلامس الأرض .. وتلك ناحية دينية.

وهو من أجل ذلك أبقى ... وأطول عمرًا.. وهذه ناحية اقتصادية! وفوق ذلك فهو يرمز إلى خاصية هذه الأمة التى لا تعرف التكلف .. فهى على طريق رسولها ﷺ براء من التكلف..

*** بساطة التكاليف:**

يبدو معنى العيد فى غيبة الإيمان شاحبًا باهتًا .. فيتكلف له الناس فوق ما يطيقون.

ولكن الإسلام ببساطة تكاليفه يحمى المسلمين من مضاعفات هذا التكلف.. يحمى المسلمين ليبدو العيد بهذه البساطة أكثر جمالا.. فالتكلف كما يقرر البصراء.. كذب .. وشهادة زور .. فالمتكلف .. فيه عيب يريد إخفاءه . ثم هو من الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

وفوق ذلك . . فهو يضع نفسه فوق منزلتها . . فيتكلف لتزييف شخصيته وذلك كله فساد فى العقل والقلب . . لا يجد إلا التكلف تعبيرًا عنه . .

ويعنى ذلك كله: أن العيد فى الإسلام معرض من معارض الجمال . . والصدق . . والبساطة . . تنطلق به الأمة متحللة من موانع التقدم الذى هو أخلق بها . وأقرب إليه وهى أقدر لو أرادت عليه.

*** الطيب .. والعطر:**

ولعلنا نلاحظ مغزى التوجه النبوى باستعمال (الطيب) . . فلم يعبر عنه (بالعطر) مثلا . .

ففى لفظ (العطر): إثارة . . بقدر ما فى الطيب من وقار هو أليق بالمسلم . . تمامًا كما أن فى لفظ (الكرم) و (السخاء) . . إثارة . . ومن ثم جاء فى القرآن الكريم بعنوان الإنفاق . . أو الصدقة . . أو الزكاة . . إيثارًا لما فى هذه المصطلحات من وقار هو من لوازم الإيمان.

*** تأخير صلاة الفطر وتقديم صلاة الضحى:**

كان من السنة . . تأخير صلاة عيد الفطر ليستطيع المزكى توسيع دائرة عطائه . . قبل الصلاة . . ثم لتكون هناك فرصة يذهب فيها الغنى والفقير معا إلى الصلاة . . حتى يتحقق معنى الوحدة . . ولا يكون اليوم فقط أخذًا وعطاء ماديًا .

وسوف يذهب الفقير إلى المصلى فارغ البال . . وما يدرينا فلعله أن يكون قد استغنى بما أخذه . . فيمنح غيره من فائض ما عنده . . وعندئذ . . فسوف يلاقى ربه فى صلاته بقلب أكثر إحساسًا بمعنى الشكر . . وسوف يشد على أيدى المسلمين حوله . . بقلب مفتوح بعدما مكنوه ليكون مثلهم سعيدًا بما منحوه من عطاء أحس معه بلذة الإنفاق.

*** الربيع الدائم:**

ولعلنا وقد عشنا معنى التعاون والألفة فى العيد أن نجعل أيامنا المقبلة كلها أعيادًا . . بالمضى فى موكب التعاون على البر والتقوى . . حتى لا يكون يوم العيد نهاية يتوقف عندها نهر العطاء. بل ليكون بداية صحوة مباركة تقطع على أعدائنا طريقهم . . إذا واجهوا ذلك البنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. فهل نحن فاعلون؟

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

مطبعة جزيرة الورد

المنصورة ـ نوسا البحر

☎٠٥٠/٤٤١١٩١